ناصر الصرامي

تشليم..

سيرة انثى..

ناصر الصرامي

تثليم..

سيرة أنثى..

طوى
للنشر والإعلام

Book: Tathlem
الكتاب: تثليم..
Author: Nasser Alsarami
المؤلف: ناصر الصرامي
Cover Plate: Nabil Al-Moalmi
لوحة الغلاف: نبيل المعلمي
First Edition 2013
الطبعة الأولى ٢٠١٣
All rights reserved
حقوق الطبع محفوظة©
طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE,LONDON,NW2,UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
TEL: 00966505481425 - 00966556687678

التوزيع: منشورات الجمل
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ - ٠١ - ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2013
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher

أنا الراوي. . .

أنا المحدث. . .

وهي أنا. . وأنتِ. . . !

الإهداء

إليها . . وإليهن . . . . والطوفان . .

ناصر الصرامي

* هذه القصة كتبت في العام ١٩٩٦، وتنشر الآن في ٢٠١٢ .

* لوحة الغلاف بريشة الفنان التشكيلي: نبيل المعلمي .

(. . . كم أنا قاسية كقساوة الأيام عليّ، كم أنا متبلدة كتبلّد الزمن تجاهي، إلى الحد الذي يجعل كل ما حولي لا يشعر بوجودي أو ينكره؟، مبكراً أدركت جيداً أنني أتقن ممارسة القسوة والتبلّد وأشياء أخرى من دون أن أعيها أو أشعر بها حتى يرفع الوقت الستار عنها، أو حتى أراها من جانب لم أكن أرى من خلاله، أو محرّم عليّ أن أفعل، أن أفعل أي شيء. لذا أفعله بكل بساطة أو سذاجة. . .).

رددت ذلك كله قبل أن تطلق تنهيدة عميقة تفوق سنواتها الزمنية التي تقترب من ربع قرن. تنهيدة تعبر عن كل الأحلام التي تغطيها ظلمة الزمن والمكان، وجمود القوم، وأفكار الرجال، وذكورية عالم يلتهمها بقسوة، تتقلب في التشكل والتبدل لتخلق مرارة أزلية.

أرسلت رأسها الى ركبتيها اللتين احتضنتاه، وأبحرت في سواد لا متناهٍ. سواد يشكّل كل عالمها منذ أبلغوها أن أنوثتها اكتملت، من دون أن تشعر إلا بروح وسائل يهربان منها إلى عالم أشد قسوة.

انسابت دموعها بنفس السرعة التي تمارس فيها الشهيق والزفير، ولم تغير من وضعها ذلك إلا عندما شعرت برطوبة تحيط بالمكان. أطفأت الأنوار المنبعثة وعادت إلى سريرها، ملاذها الأوحد ومستودع أسرارها.

لم تلق بالاً للأشياء المتناثرة داخل غرفتها. الفوضى تعم كل شيء. مكتبتها التي تحوي كتباً مهرية ومتناثرة في عناوينها، خزانة ملابسها المشرعة الأبواب، الأكوام الورقية ومجلات وصحف قديمة تنتشر داخل محيط غرفتها في فوضى متناهية في الدقة. لا يستطيع وصفها بهذه الصيغة إلا أنثى تشعر بالعزلة عن عالمها، محيطها، وعن الحياة.

استرخت على سريرها، الظلام يغطي أرجاء الغرفة. حتى تلك النافذة الصغيرة التي تطل على جنوب العالم، والمنفذ الوحيد للهواء والنور أحكمت إغلاقها. ركزت نظراتها باتجاه نقطة محدودة اختارتها بطريقة عشوائية وهي سابحة في الظلام شبه متجمدة، من دون حركة، وتفكيرها يقترب إلى حالة الشلل التي تصيبها، لتبقى نظراتها في اتجاه واحد.

رنين جرس الهاتف المتواصل لم يحرك لديها ساكناً. حالتها هذه ـ كما تفسرها ـ كانت الطريقة الوحيدة التي تتوسل فيها لنوم أن يزور أجفانها، أن يختطفها، يغتالها، يعتصرها، كما تحب أن تقول، كما يتجسد واقعها بكل أبعاده.

لكنها لا تنجح في استدراجه إلا مع بداية تسلل خيوط النور وانسحاب الظلام. عندها يعانقها النوم ويرضخ لتوسلاتها. تحتضنه من دون أن تدع له الفرصة للهروب.

ـ الساعة الثانية ظهراً، لا ندري كم تحتاجين من الوقت حتى نتمكن من رؤية وجهك الأصفر قبل أن تتعفني.

يبتعد الصوت.

ـ نومة أهل الكهف إن شاء الله.

ثم بسخرية ومن نقطة أبعد:

ـ الغداء أيتها الأميرة. . . .

اعتادت أن تسمع هذا الصوت الأجش بخشونته المفزعة في هذا التوقيت من كل يوم، تصاحبه طرقات قوية وضربات لا تتوقف على باب غرفتها، توحي بأن الباب لن يبقى في مكانه لفترة طويلة.

في المرات التي تتكرر فيها الطرقات القوية على باب غرفتها، وبعد فترة قصيرة مصحوبة بالضربات الأولى يأتي صوتها مخنوقاً:

ـ صحوت، ولا رغبة لي في ألاكل.

ـ لا يهم، اخرجي قبل أن يتعفن جسدك. ماذا تفعلين خلف هذا الباب المغلق. . ؟!

تتوقف عند هذا الحد من دون أن ترد على العبارة الأخيرة. فهي تدرك أن مزيداً من النقاش يعني لها دخول معركة خاسرة، وعبارات أكثر قسوة وأكثر قذارة، وأن غضب كل ما هو خارج غرفتها في العالم ولعناتهم ستصب عليها إلى داخل غرفة لا يتجاوز مقاسها أمتاراً معدودة. لم يسمح لها قبل سنة تحديداً بإغلاق الباب. إغلاقه في الماضي القريب كان جريمة لا تغتفر. هذا مؤشر ايجابي تطمئن به نفسها على تطور حرية أنوثتها. لكن حتى إغلاق باب الغرفة ووحدتها أصبحتا محل شك، يا لهذا العالم العجيب، وهذه التناقضات التى تكاد تفجر رأسي الهش. حدثت نفسها.

ومن دون إنذار، تنساب دمعة وحيدة على خدها لتقدم لها تحية الصباح. يتقطب وجهها لثوانٍ. تنظر إلى المرآة، تطالع دمعتها والطريق الذي قطعته حتى وصلت إلى حافة خدها، وتبتسم ببلادة.

تتسلل خارجة من غرفتها كمن يخشى أن يره أحد. تأخذ موقعاً في صالة الجلوس بعد أن ألقت التحية على الجميع من دون أن تسمع إجابة إلا من أخيها الصغير «مروان».

تغزوها عيون الجميع وكأنهم يتطلّعون إلى مخلوق عجيب. تلتقط الجريدة لا لشيء سوى لتشغلها عن الآخرين ونظراتهم إليها. لحظات فقط، فرغ المكان إلا منها.

بعد أن تأكدت أن لا أحد موجود سواها، وضعت الجريدة جانباً ونهضت إلى المطبخ.

ـ كأس عصير من البرتقال مع حبات من البسكويت بداية جيدة ليوم تعيس جديد. حدثت نفسها.

عادت إلى صالة الجلوس حاملة إفطارها، تناولته. اتجهت نحو غرفة أخرى حيث كانت أختها أروى مستقرة هناك بمفردها. جلست إلى جانبها تحدثها في كل شيء ولا شيء. ابتسمت وضحكت من دون أن تدرك أنها فعلت ذلك. غابت أروى لدقائق، فلم تجد سوى ذاتها لتصارحها بحقيقة مشاعرها عن أروى.

ـ أنا أكبر منها بثماني سنوات، ولكنها تملك كل شيء، وتستطيع

الحصول على ما تريد. اختناقة صوتها لثوانٍ ودمعة مصطنعه كفيلتان بأن تحققا لها كل رغباتها الممكنة واللاممكنة. هل لأن أنوثتها لم تعلن عن نفسها بعد؟ تساءلت.

ـ لكنها طيبة، تستحق أكثر، ولا يفترض أن تكون نسخة من معاناتي. لا بد أن أخنق مشاعر الغيرة تجاه هذه الأنثى الصغيرة التي لا تزال في بداية تكوينها. ولا تدري ما ينتظرها، لو أدركت، لتمنت أن يتوقف الزمن قبل نضوجها، بل ولفعلت كل النساء، قبل نضوج وبلوغ أي امرأة في أرضنا.

أضافت:

ـ حتى لو لم أكتمها ماذا يمكن أن يحدث، سيظل كل شيء على ما هو عليه وسأخسرها، فقد خسرت أجيال من النساء على أرضنا، هذا قدرنا الذي اختاروه لنا، وليس أمر القدر علينا.

ابتسمت عندما لمحت أروى عائدة. تحدثتا هذه المرة عن أشياء لا معنى لها، أو هكذا تشعر تثليم.

لا معنى لها سوى أنها فرصة للحديث والتدريب على الكلام حتى لا يفقد لسانها قدرته على ترديد الحروف.

عادت إلى غرفتها، راقبت الفوضى التي تعم المكان. حاولت جاهدة أن تحسن من الوضع، ولكنها وجدت نفسها تتسبب في فوضى جديدة، تركت كل شيء في مكانه، وغابت في عالم بين الواقع والأحلام، بين

الكون وبداية التكوين، بين عالمها في ساحة لا تتجاوز العشرة أمتار إلى كون يمتد إلى البعيد خلف باب غرفتها الفضية.

الباب الذي تتلمسه بين وقت وآخر هو الدليل الوحيد على انتصاراتها المزعومة، أو هكذا توهم نفسها، حيث بدأت قبل عام من الآن على إقفاله وسط نظرة تتباين بين الشبهة والاتهام من كل من حولها من الذكور.

عالم يمتد إلى اللاتناهي، يتجاوز الحي والمدينة والبلد إلى عالم غارق في تنوعه وحريته وتفاوته. سرقة ابتسمت للقدر وبقيت في حالة صمت مذهلة مع خيال لحدود الكون ومجرّاته.

شك الذكريات . . !

أمامك لا أملك إلا أن أعلن استسلامي وأُلقي أسلحتي . .
قبل أن أعود إلى وحدتي . . .
نزقي . . وإن أحببتي مللي . .
أو بحثي الصاخب عن الأشياء الظاهرة . .
عن الحقيقية . . بأشكالها وأوزانها وتفاصيلها . .
وكما السيف الذي يهبط على وردة . .
وينثر أوراقها فوق لوحة رسام تشكيلي فخم . .
تأتي كلماتك . . . . وأتأملها لتأخذني في نشوة لذة . .
حتى وهي عصية عن الكشف . . أو كشفك . .
لذا لا نتوقف . .

صحيح . . إن الشك يأخذني نحو استفهامات لا تتوقف . .
فيها نزق؟ . . ربما . . .
فيها ريبة؟ ربما الكثير منها . .

فيها فضول؟ . . بالتأكيد .

فضول لا حد له إلا الحقيقية . . .

كيف تقتلنا الكلمات لتعيد حياة ما بقي مرة . . بعد مرة . .

يأكل الغربة . . ويأكل الغموض وسحره . .

يأكل الحلم أو بعضه . .

يخترق همسك جدار الصمت أو ينسف جدار الذكريات . .

لتجربة حرف قديمة وتقاطيع صورة

كان الزمن التهمها إلى غير رجعة . .

لكنها تتشكل وتعود في صوتك الآتي من الغربة أو المجهول . .

إنه أنت بعض القادم من أحضان زمن عتيق . .

لم يبقَ الا صداه . .

أيتها الحالمة . . أو المشغوفة بالأحلام . .

وهل اجمل من حلم يبقينا للنهاية . . يبقينا أحياء . . . ؟

بداية التنجيم . .

نهاية أسبوع أخرى كئيبة . . .

اليوم الخميس موعد الزيارة الأسبوعي للعائلة، كما عند كل العوائل السعودية، وعمها الأكبر ينتظرهم. تأملت ساعتها وجدتها تشير إلى السادسة مساء. بدأت في الاستعداد لهذه المناسبة الأسبوعية. فجأة شعرت بالاختناق واتخذت قراراً فورياً بالانسحاب. هذا الأسبوع قررت ذلك وهي تدعو أن تكون قادرة على تنفيذ هذا القرار، وأن يكون التوبيخ الذي ستجده أقل قدر ممكن. مثل هذا القرار ليس حقاً لها، ولا يجوز له مجرد التفكير فيه في العرف وتقاليد العائلة الممتدة الى جذور قديمة في تاريخ الصحراء.

كادت أن تتراجع بدافع خوفها من النتائج المتوقعة لمثل هذا القرار، لكنها أصرت وأكدت تمسكها بقرارها بدمعات قليلة ذرفتها وكلمات تمتمت بها:

ـ ما حدث في الأسبوع الماضي لا يمكن نسيانه، ولا يمكن أن يتكرر هذا الأسبوع أيضاً.

حدّثت ذاكرتها حتى تكتسب صلابة أكبر في موقفها. بين ألم وحزن لا يمكن للآخرين إدراكه حول مصادرة أبسط حقوقها، أقل قراراتها، طمس كامل لأبسط اختياراتها.

ـ نعم، لا يمكن أن يتكرر ما حدث في الأسبوع الماضي. صحيح أن عمتي حاولت التدخل وأنقذ ابنها الموقف، ولكن كيف يمكن أن يتركوني وحيدة ويعودوا إلى المنزل من دون الشعور أو السؤال عني وكأني قطعة مهملة لا تعنيهم..

يزداد موقفها صلابة أكثر وهي تتذكر عمها الذي يصغرها بعقد كامل ـ خالد ـ ومواساته لها على الطريق. تتذكّر بشكل أكثر تحديداً تلك الجمل التي لا يزال صداها يتردد في مسامعها:

ـ لا تقلقي يا تثليم، فأنا معك أدرك كل شيء. أترقبك وأدعو لك.

يقطع تلذذها بهذه العبارة، طرقات مخيفة تهز كل غرفتها، يصاحبها صوت رجولي عنيف وساخر أيضاً:

ـ أرجو ألا يطول انتظارنا، فالموكب جاهز ولم يبقَ سواك.

تجيب من خلف الباب بتردد.

ـ ومن قال إنني سآتي، إذهبوا فأنا متعبة.

صوت مصدوم:

ـ نعم

بعزم هذه المرة:

ـ كما قلت لك.

فجأة يملأ المكان الصمت. تقف حائرة تحدث نفسها بصوت مسموع:

ـ هل يعقل بهذه السرعة. رحمتك يا رب... يا.. ر... ب.

تفتح باب غرفتها بحذر شديد للغاية، تطل برأسها في الاتجاهات الفارغة، تسحب خطواتها، تلف المنزل كله، تتأكد أن لا أحد سواها.

تقتحمها رغبة قوية للبكاء للانتفاضة على ذاتها وسط المكان الفارغ. تليها رغبة جامحة لممارسة النشاطات المنزلية حتى وهي غير راغبة فعلاً، فقط لتشعر بما يفعله الآخرون.

ها هي تحقق انتصاراً آخراً صغيراً، تحدد لأول مرة، خيارها: البقاء في البيت...!

لكن كيف قبلوه بلا نقاش؟... تتساءل مرتبكة.

لكنها تتجاهل شعور الشك بالبحث عن متعة الحرية في مساحة أوسع داخل أسوار البيت.

يدق جرس الهاتف أكثر من مرة، تنظر إليه من بعد، تتساءل:

ـ هل يمكن أن أجيب، وأي كارثة يمكن أن تحدث؟

يتوقف الرنين ثم يعود بعد لحظات مرة أخرى. تشعر بأن رناته هذه المرة بعزم أقوى من ذي قبل. وبعد رنين متواصل ترفع سماعة الهاتف بتردد يهز أطرافها كافة. تقرب السماعة منها. من دون أن تبدي أي صوت تعيدها فجأة إلى مكانها. قد يكون أحد أخوتها. قد يكون أحد أفراد عائلتها يتفقد غيابها. الرد أيضاً تهمة كافية.

أعادت الهاتف إلى مكانه الطبيعي. شعرت بالوحدة والحزن وانقلاب

غريب للحياة لا يحدث بهذه الصورة والتبديد إلا في عالمها، في مجتمعها ومجتمع إناثها.

شعرت بمرارة ظالمة، وتتذكر آخر خسائرها حين رفض طلبها بلا نقاش للحصول على هاتف محمول، بعد رفض دخولها إلى لانترنت من دون وجود اخيها الصغير مروان ـ محرم إلى جوارها. وانسحبت إلى الفراغ ببلاهة أو ذكاء، لا يهم.

تأكدت أن السماعة في موقعها. شعرت بحاجتها إلى تناول كوب قهوة، وعلى الفور اتجهت إلى المطبخ، للحظة أطلت برأسها في الفراغ الممتد بين صالة الجلوس والغرف الأخرى لتتأكد جزماً أن لا أحد سواها.

أغلقت باب غرفتها وأدارت المفتاح أكثر من مرة. أخرجت حقيبة متوسطة الحجم تحتفظ بها تحت سريرها. فتحتها وأخرجت منها «علبة سجائر هربتها للاوقات الصعبة».

ـ هذه الفرصة من ضمن فرص قليلة تقتنصها لتمارس طقوسها في التدخين، طقوس تؤديها بمهارة فائقة وكأنها تدرّبت عليها طويلاً. العالم يتقلّص أمامها في سيجارة، هو شيء من التحدي، تراقب سيجارتها وتحترق معها على مهل، قبل أن تتحول إلى رماد نتن.

أشعلت سيجارتها الثانية بنفس الطقوس، وسبحت في خيال لا شكل له وبلا فكرة، ككلمات متقاطعة.

تراقب الاحتراق والرماد وتنتشي برائحة النتن بطريقة لا إرادية وحزينة وقاسية. ثم أعادت السجائر إلى حقيبتها وأحكمت إغلاقها ودفعتها تحت

سريرها. بادرت إلى التخلص من الرماد، ألقت به في كرسي الحمام قبل أن تطرده إلى داخل أنابيب مجاري الصرف الصحي، وبخيالها الغريب تتخيل مساره عبر الطرقات والممرات ليصل إلى أطراف مدينة حرمت من العيش فيها والاستمتاع بملامحها، حرمت من كل شيء خارج غرفتها، خرج بابها المشبوه، استيقظت من فكرتها، فطنت إلى أن رائحة الدخان النتنه تملأ المكان، انتفضت وبذلت مجهوداً كبيراً لإزالة رائحة الدخان حتى لا يكتشف أمرها، فعطرت الغرفة والممر المؤدي إليها بعطور تفوق في قيمتها قيمة تلك السيجارتين عشرات الأضعاف.

تأكدت أن كل شيء عاد إلى ما كان عليه قبل المغامرة، أقفلت غرفتها فوراً. فكرة بمغامرة أخرى، الدخول إلى الانترنت من دون وجود محرم! لكن بادرتها حالة الإعياء مرة أخرى. شعرت بحاجة للاسترخاء أو البكاء. أبقت نوراً صغيراً يتدلى من حافة السرير العلوية.

من دون أن تشعر وجدت نفسها تحتضن مفكرة سوداء سميكة بعض الشيء، كانت قد جذبتها من تحت وسادتها. قبّلت تلك المفكرة التي تذوب فيها أسرارها. أوقات قليلة متقاربة أحياناً ومتباعدة أحياناً أخرى تلك التي تحتاج فيها إلى التطلع إلى هذه المفكرة، أو تدوين شيء تحدث نفسها من خلاله. في الغالب كانت تعتمد على ذاكرتها، فكل ما تحويه هذه المفكرة محفور في ذاكرتها، حتى تلك التفاصيل الهامشية أو الدقيقة أو المتداخلة مع مساماتها.

في مثل هذه اللحظات تتجلى حاجتها لهذه المفكرة، في مثل هذه اللحظات التي تنتابها وتستسلم من دون أن تشعر إلى الغرق الكامل في حروفها وكلماتها.

تعترف أنها في أوقات لا تدركها، تشعر برغبة في تمزيق هذه المفكرة أو إحراقها. إلا أنها تتراجع بخوف وهلع وانتفاضة تشمل كل أطراف جسمها كمن يحاول الانتحار من دون أن يستطيع.

شدت المفكرة إليها بشكل قوي، دقت عليها بأصابعها، قبلتها ثم رفعتها إلى أعلى وتطلعت إليها من بعيد وسقطت دمعتان من عينيها. كل ذلك كان يتم بطريقة تتكرر عند كل مرة تجذب فيها المفكرة إليها.

بدأت من الصفحة الأولى، الصفحة التي تعيد قراءتها كل مرة ترغب في إضافة أو تسجيل أو التطلع إلى موقف أو حدث بذاته. الصفحة الأولى تحوي ستة أسطر، كتبت بخط مائل ومتقطع وغير واضح، توحي بأن كاتبها في مراحله الدراسية الأولى.

«ماما العزيزة، شكراً ألف مرة من قلب ابنتك تثليم، على هذه المفكرة الجميلة والجديدة.

ماما، هذه المفكرة ستكون دائماً معي ولا أدري هل أرسم أم أكتب فيها الآن.

نحن في نهاية السنة الدراسية. ووجدت أن أجمل ما يمكن أن أحتفظ بها من دون أن استخدمها عاماً واحداً فقط، حتى أقرر أن اختار الرسم أم الكتابة، ستكون معي دائماً،

ولذلك يا ماما فإن البداية ستكون لك كلها حب».

ابنتك المحبة لك: تثليم ـ الرياض

تجاوزت ما يقارب الست صفحات بعدد تلك الأسطر، والتي لم تكن

تحوي سوى ذكريات طفولة لابنة بالكاد تجاوزت عقدها الأول، ولم يكن فيها ما يغري على التأمل على الأقل بالنسبة للمرحلة التي تعيشها:

«ماما العزيزة اشقت إليك كثيراً. صحيح أنك لم تغيبي سوى يومين، ولكني أشعر بالحاجة إليك، إلى حضنك، إلى سماع صوتك.

عندما تأتين سأجعلك تقرأين هذا الكلام حتى لا تتركيني مرة أخرى. ولن أسمح لك يا مام أن تتركيني».

لم تكن سوى ذكريات عادية لا تستحق الاهتمام، أو هكذا تراها. استوقفتها إحدى الصفحات التي نسيت عند كتابتها أن تدون تاريخها. وهي ترجع ذلك إلى أنه أول موضوع كتبته من قلبها، وأنها نامت ممتلئة بمشاعر الفقد، وبدايات خوف ووحدة أبدية..

«ماما حبيبتي، اليوم في المدرسة أحضرت إحدى صديقاتي مفكرة مثل مفكرتي، ولكنها بيضاء. ولأني صديقتها جداً كما قالت لي، جعلتني أقرأ معها ما كتبته فيها».

وجدت شيئاً مختلفاً بين مفكرتي ومفكرتها. في مفكرتها رسائل إلى أمها وأبيها وأخوتها وذكريات معهم. وسمحت لي أن أرى صفحة تقول إنها سر.

كتبت فيها رسالة تعتب فيها على أبيها بسبب أنه ضربها لخطأ ارتكبته، ورسالة أخرى لأخيها الذي خاصمها.

«كم كنت أتمنى يا ماما أن يكون أبي معنا، أو أن يكون لي إخوة أيضاً حتى أكتب رسائل لهم لو ضربوني أو خاصموني. أريد أن أكون مثل نهى.

ماما، دائما تقولين إن بابا مسافر. وقبل أيام جاء أب إحدى صديقاتي من سفره بعد سنتين من الغياب.

لماذا لا يأتي أبي؟ ولما لا يكون لي إخوة؟ أنا أحبك يا ماما، ولكن أريد أن يكون لي أب وإخوة».

تثليم

تبسمت ببلادة ثم تلاشت هذه الابتسامة لأنها لم ترَ التاريخ.

عزّت نفسها: «كل أيامي وأزمنتي مؤرخة بالحزن».

قلّبت الصفحات بطريقة سريعة كأنها تبحث عن صفحة بذاتها من دون غيرها، ووقفت تتأمل أسطرها المائلة:

«... اليوم ومن دون أن تدرك أو هي تدرك أكملت أمي تلاوة قصة أبي. أبي الذي ما رأيته منذ أن أبصرت ما أمامي وميزت الأشياء. أبي الذي لا أدرك أي نوع من الرجال هو، وأي أب هو..؟

تحتضر الأرض بين قدميَّ. يسطر اليأس حروفه على جبيني، ووجهي أصبح مرآة تعكس شعاع الحياة ليرتد عني.

رحل أبي وحمل خيمته السوداء إلى أعالي الجبال، ضرب الأرض، جمع ذكرياته ودفنها وأحرق المكان. ترك أمي بدموع كقطرات ماء الشمع في خديها، لم يبالِ بي، تركني كورقة عارية في يوم عاصف، وتركنا بلا ماء ولا هواء، وبلا حب، نقل خطواته إلى موقع آخر ليزرع قبيلة جديدة يحمي بها نفسه من الزمن ومن ذاته وقوته.

غير مبالٍ بحياتي وبثمرته. لماذا كنت أنت، وكانت هي، وكنت أنا؟

رحمتك يا الله، فأنت في السماء، وأنا من فقدت أباها في الأرض، فلا تلمني، وأرفق بي وبقدري وأمي. فأنت في السماء تعلم بماذا يتهامسون. لقد حكت لي أمي الحكاية لتخبرني عن أب جديد. كيف يكون شكل أبي الجديد؟

الهروب أم الخوف. . .

أنهت هذه الحروف وراحت في إغماءة بين النوم والخوف، بين الوجود واللاوجود. انتقلت إلى ماضٍ، إلى دمعات أمها وهي تتلو عليها بيان حياتها.

عندما كانت مستقرة مع أمها في تلك المنطقة البعيدة عنها الآن، أبحرت في تلك الخدعة القاتلة التي جذبتها من أحضان أمها إلى مجمع قبائل أبيها، وإلى مصير أمها.

وهل غادرت الوجود إلى عالم الغيب، أم أن ذلك تفضيل زائد على اكتمال الخدعة واحتوائها داخل مجمع قبائل والدها؟ فهو الأولى بالثمرة من سواها.

في هذه الأثناء، سمعت صرخات أطفال وأبواب تغلق وتفتح وحركات هوجاء أدركت من خلالها أن الجميع عادوا للتو. خشيت من هجوم جديد عليها عندما يعتقدون بأنها تغط في سبات عميق. أشعلت الأنوار وأخفت مفكرتها تحت وسادتها. تطلعت إلى الساعة وجدتها تشير إلى الواحدة صباحاً. خرجت من غرفتها تحمل مجلة قديمة ومهترئة. تدرك أن لا حاجة لها للخروج أو مقابلة الآخرين في هذا الوقت إلا لمجرد

تسجيل الحضور. طافت بالبيت، تطلعت إلى الجميع وهم لا يكادون يشعرون بوجودها.

عزمت على العودة إلى غرفتها. في طريق عودتها حيّتها أروى الصغرى، غمزت لها، وفهمت منها أنها ترغب في محادثتها وتطلب أن تتبعها إلى الغرفة.

لحقتها على أمل أن تقتل وحدتها ولو لبعض الوقت، لكنها تساءلت:

ـ لماذا الإشارة من دون حديث. هل في الأمر سر أو سوء، أو أن هناك خطراً يحيط بها؟

ابتسمت للفكرة ورددت:

ـ أي خطر يمكن أن يحدث؟ لا يمكن أن يكون أسوأ مما كان ويكون وما هو كائن..!

دخلت إلى غرفة أروى، وعلى الفور بدأت تحدث تثليم عَمَّ جرى في لقاء العائلة الأسبوعي. كانت طريقة حديثها تجبر تثليم على التبسم، إذ كانت أروى وهي تتحدث كمن يقرأ محضر جلسة متكاملة.

تبادلت تثليم الحديث مع أختها وهي لا تشعر بميل إلى ذلك، ولكن لحاجتها. وكون أروى هي الخيار الوحيد لها، جعلها تستسلم لها.

فجأة، انتفضت تثليم كمن تذكر أمراً مهماً لا يمكن تأجيله، فغادرت إلى غرفتها بعد مجاملة قصيرة لأروى وهي واقفة.

لم يكن هناك ما يدعوها إلى ذلك سوى تذكرها لخيار آخر غير أروى. مغامرة أكثر تشويقاً.

وفور دخولها إلى غرفتها راحت تتأكد من وصلات الهاتف في غرفتها وأنها تعمل، وأن الجهاز لا يزال يحتفظ بعافيته.

شعرت بخوف يتسلل إلى نفسها. فأي خطأ ترتكبه هي على وجه الخصوص غير مغفور لها، بل إن عقوبته ستكون قاسية ولم تخطر على بالها أو بال بشر من قبلها، وعقابه تحديداً سيكون مضاعفاً، وأجهزة الهاتف تنتشر في المنزل.

لا يسمح لها كفتاة بالحديث إلى من تشاء، فكيف يكون الحال إذا كان الطرف الآخر من جنس آخر! ولتطرد هذا الخوف من داخلها، قامت بجولة تفقدية سريعة، وعطلت الهاتف الآخر في المنزل، وعندما وجدت أن لا أحد بالقرب منها، تضاءل الخوف بداخلها واستقرت في غرفتها. بعد دقائق جاءها رنين الهاتف. ترددت في البداية.

ـ ماذا يريد هذا.. ؟

قالت ذلك ثم عزمت على رفع السماعة وإنهاء المكالمة في أقصر وقت ممكن وجاءها صوته مباشرة:

ـ أرجو ألا أكون قد أزعجتك في هذا الوقت المتأخر، إلا أن هذا الوقت الوحيد الذي يمكنني فيه أن أصل إليك.

ـ أبداً لا يوجد إزعاج، ولكن أي موضوع يمكن أن تتحدث فيه.

ـ كل ما حولك مادة للحديث. أسلوب حياتك، يأسك، وحدتك، إحساسك بالآخرين وبالوجود من دون الحياة.

أطلقت زفرة ضيقة قبل أن ترد:

ـ أي إحساس وأي وجود وأي حياة. الحياة لا يعنيها من أنا ومن أكون.

أنا واحدة بين الملايين، والآخرون لا يشعرون بي، فكيف تريد أن أشعر بوجودهم؟ أو حتى بوجودي؟ ثم إن الحياة تسير وفق نسق لا يمكّننا من النظر إلى الآخرين ومعاناتهم. بشر يعانون من دون أن يدركهم الآخرون، كيف يدركون شخصاً أو إنساناً واحداً في عالم بين البؤس والمرض والخوف والجحيم؟

صمتت للحظة ثم أضافت:

ـ أنا يا قريبي مجرد رقم في عدد ضخم يمكن حذفه وإضافة مئات الأرقام بدلاً منه، من يهتم..؟

ـ لم أكن أتصوّر أن اليأس استطاع أن يوصلك إلى هذا المنطق الساذج، ولم أكن أعتقد بأنك تملكين هذا الكم وهذه الذخيرة من المفاهيم المغلوطة.

ـ قل ما تشاء، وانظر إليّ من أي اتجاه تريد، ولكني أنا أنا، ومكتوب أن أبقى هكذا.

ـ أي هروب أحمق هذا، لا يمكننا أن نصل إلى النهايات المغلقة بسلب إرادتنا.

ـ ياسر أرجوك، إن كنت ترغب بالاستمرار في هذا الموضوع فلست مستعدة لتمديد وقت المكالمة إلى أكثر من ذلك، ومضاعفة المخاطر هنا، مكالمتي لك قد تعني نهاية الحياة وسجني في زنزانة غرفتي حكماً

مؤبداً، وإن كنت ترغب في طرق موضوع آخر يمكنك ذلك لكن بسرعة أرجوك.

ـ صدقيني يا تثليم، إن حديثي كله ينطلق من حرصي عليك واهتمامي بك.

ـ شكراً لك.

ـ تثليم، إنني أعرفك جيداً، ومنذ زمن ليس بالقصير وأنا أحاول الوصول إليك، على الأصح أن يصل صوتي إليك، ولعل صوتك يصل إليّ. صدقيني إنني أدرك حجم المعاناة والمأساة، وأعرف ظرفك، حتى إنني أدرك تلك المرحلة التي عشتي فيها مع أمك. صحيح أنني سمعتها بروايات مختلفة ومتناقضة أحياناً، ولكني أدرك خطوطها العريضة. ومن خلال رسائل الاستغاثة التي تبعث بها أمك.

ساد صمت بعد هذه العبارة، ولم يبده سوى إضافة ياسر:

ـ أنا أكبرك بسنوات، ولكني كنت دائماً أشعر بميل شديد نحوك، ولكني أرجوك للمرة العاشرة ألا يستمر هاجس الماضي هو المسيطر، إنه هاجس قاتل.

قاطعته:

ـ أنت لا تدرك حقيقة الماضي جيداً، لم تعشه، لم تجربه، لا أحد يعرفه إلا أنا.

ـ أيّاً كانت تلك الحقيقة، فهي ماضٍ ليس إلا، والحاضر دائماً هو نحن، أفهمتي ما أعنيه؟

ـ حقيقة لا أستطيع الحديث معك وقتاً أكثر.

ـ حسنا، ولكن هل تعدينني بوقت آخر غداً. مثلاً، مثل هذا الوقت.

ـ لا أعدك بشيء، كيف أعدك بشيء، والحياة لا تعدني بشيء.

سحبت كمية هواء كبيرة ثم دفعتها للخارج وهي تشعر بوضع نفسي أفضل. حاولت النوم، لكنها وجدت نفسها عاجزة وغير راغبة في ذات الوقت. سحبت المفكرة تلك وبنفس الحركات السابقة قلبت الأوراق وكأنها تبحث عن ورقة بعينها، حتى استقرت عند تلك الصفحة التي ترى حروفها تتحرك وتقول لنفسها:

ـ أي رسالة طائشة تلك يا أبي. ستة عشر عاماً من الغياب تعلن بعدها عن حضور غامض قاسٍ وصلب.

أي لغة تلك التي ترجو من أمي ومن خلالها أن تقنعني بالرحيل معك لبضعة أشهر؟ ولماذا هي تفعل ذلك وتحاول جاهدة إقناعي بحتمية ذلك؟ ماذا يحدث؟ لماذا أشعر أنك أتيت لحمل تحفة فنية رخيصة، لمجرد أنك تذكرت أن ملكيتها تعود إليك.

اللعنة على هذ الوثيقة التي أحملها وشهادة ميلادي أو موتي. هذه فقط ما تثبت أحقيتك في ذلك وعامي السادس عشر..!

آه.. لو يتوقف الزمن ويعاد، لأوقفته عند سن مبكرة، سنوات طفولة لم تعش بعد، لكنها ستجعلني أقرب إلى حضن أمي طوال العمر.

أدرك أنك أبي أو شيء يشبهه، كل الرجال متشابهون في بلدي، ولكن

أنت تحديداً لم أرك، لا أتذكر ملامحك أو قامتك، لا شيء يربط ذاكرتي أو قلبي أو روحي بك. ولم تكن معنا في تلك الليلة التي سقطت في صبيحتها بين زميلاتي في المدرسة، ولم ينقذني إلا دم أمي، ولم يكن فوق رأسي إلا أمي، ولم أكن أرى سوى أمي. لم تكن معنا حين أعلن الطبيب ذات مرة إصابة أمي بورم خبيث يقتضي جراحة عاجلة.

حينها كانت خالتي العاجزة تتكفل برعايتي ورعاية أمي.

وإذا بي وأنا طفلة أتكفل برعايتهما معاً، وكانت النتيجة أن حرمت من الدراسة تلك السنة. أين كنت؟

أين كنت؟ أين مضيت؟ ولماذا تعود؟ لماذا الآن..؟

استرخيت بعد أن آلمت شظايا اللهب هاجسي، صرخت بتضاريسك وأرضك، أرهقتني حروف رسالتك الطائشة، غصت بين سطورها، لا أعرف من أنت! عفواً، فما زلت محتارة بحسي بين رائحتك ورائحة القبيلة، بين شكلك وشكل العشيرة، بين لونك ولون الحقيقة.

أبي، هل ما زلت حقاً تتذكرني؟

أم أنك ترى أن حقك الشرعي في الثمرة قد حان الآن وحسب.

كيف يمكن أن أدعها أمي، أن أهجرها أمي، أن أسافر عن ذكراها؟

إنها شجرتي، فلا تنزع الأوراق من أغصانها،

ولا الأغصان من جذورها.. ولا الجذور من تربتها.. ولا التربة من وطنها.

تثليم ـ الرياض

حياة كادت أن تبدأ. . .

قد تموت الزهرة قبل أن تعطر أجواءنا، لأنك تغتصبين عطرها، نسماتها.

ولم تدعيها تلطف ذكريات تتجول داخلك. فأنت الزهرة وسحرها وعطرها.

كأنك لا تريدين الحوار.

فكرك تجول فيه رائحة الدمار.

عجباً لحالك، فقد غيبتي تفاؤلك.

حتى رائحة عطرك تحرقينها. .

دعي حديقة الأزهار،

امتنعي عن الجدال،

وتقدمي لساحة الحاضر قبل أن يتبخّر العطر وتذبل الورود، ونفقد ذاتنا.

ياسر

عندما عانقت تثليم هذه الرسالة التي هربت إليها عبر ابنة عمتها نجوى،

صمتت لوقت. كانت نجوى تستحثها على الرد العاجل على هذه الرسالة. ورغم المحاولات الجادة، إلا أن تثليم أغلقت باب المحاولات بالتأكيد أنها ستقدم الرد بالطريقة وفي الوقت المناسبين.

تثليم لم تخفِ إعجابها بما سطرته الرسالة، كما لم تخفِ أيضاً خوفها منها ومن جرأة ياسر اللامتناهية وسط بيئة محافظة ومخادعة.

في الفترة من وصول الرسالة إلى اليوم السابق للزيارة الأسبوعية التالية، كان الشغل الدائم هو أي جواب يمكن أن ترد من خلاله على تلك الرسالة.

الرفض أم القبول والرضوخ لهذا التواصل؟ أو كما سمتها (المنازلة)، لم تكن راغبة في القبول بهذه الصورة على الأقل، كما أنها لا ترغب في الرفض أيضاً.

تغلق نافذتها للعالم. نافذة قد لا تسعد بها، لكنها هي المتاحة. هي المتنفس الجديد في بيئتها المحيطة بها. معبرها وممرها لرؤية العالم بعيون غير عيونها وإحساسها الكئيب بفعل الزمن وعقوق المحيط، وأنوثتها.

كانت تحدث نفسها.

لم ينقذها من دوامة القرار مكالمة جاءت في وقت متأخر من ياسر المتلهف للرد،

لكنه صدم عندما وجد أنها لم تخط بعد حرفاً واحداً فيها.

- هل يعقل هذا؟ أم أن رسالتي كانت مزعجة لهذه الدرجة؟

- صدقني ليس الأمر على ما تتصور، ولكن أعدك أنك ستجدها غداً

مع نجوى، إلا أنني احترت في أمرها، فأنت لم تعطني خياراً ثالثاً في الرد.

ضحك بصوت مسموع.

ـ إن كان ذلك فهذا ما أقصده، وأنا أنتظر كما أفعل دائماً معك.

ليس عندها أي فكرة على الإطلاق عن ما ستكتبه. أعادت قراءة الرسالة أكثر من مرة. ركزت في بدايتها فوجدت ما يشبه البوح عن المشاعر، اختارت أن تكتب عن ذلك من دون الخوض في حياتها وعزلتها.

أن تغير الموضوع تماماً، كانت تدرك أن دخولها في هذا الميدان يعني خسارتها، ألمها، حزنها، وتوسل عطف الآخر، وهي لا تريد ذلك، أو في غنىً عن كل ذلك، كما تؤمن دائماً.

فجأة تحرك قلمها:

«احترت، اختلطت جوارحي وجروحي، أرسلت سهماً زاد من إيلامي،

وتراقصت عيناي في أحضان وجهي،

اختطلت خطواتي، تشابكت حواسي، لم أعد أقوى على التمييز،

بقيت علامات الاستفهام والتعجب، من أنت؟!

سقطت على أعتاب أقدامي، بقيت رائحة بقايا كلمات، تزين أبوابي وأوراقي».

تثليم

ـ كانت ترغب أن تضيف، لكنها اختارت أن تبوح بالبعض ويبوح الوقت بالكل.

اليوم الخميس، تثليم أولى القادمات إلى صالة الجلوس. علامات الدهشة ارتسمت على الجميع والأمر لا يعنيها.

همست أروى لها:

ـ لا بد أن في الأمر سرًّا، وأن هناك انقلاباً خطيراً.

غمزت بإحدى عينيها تطلب منها السكوت.

فكرت بالرحلة التي ستقطعها الرسالة قبل أن تستقر في يد ياسر، هل الإرسال بالحمام الزاجل كما كان يفعل قادة الحروب أفضل؟ أم استخدام البريد وطوابعه أمر لا يزال متاحاً؟ كيف في عصر كهذا تبدو الوسائل تقليدية، رغم كل الاتصالات المتاحة، هل طرقنا الملفوفة تشبهنا، أم أننا تورطنا فيها بفعل فاعل.

بعد أقل من ساعة كانت الرسالة قد انتقلت إلى نجوى، ومن شقيق نجوي الصغير إلى ياسر الذي لم ينتظر نهاية اللقاء العائلي. غادر المكان بعد أن استقرت الرسالة في يده، انتهى يوم عائلي تراه تثليم لطيفاً! مع اختلاف أروى معها في ذلك الرأي ومحاولة توضيح البرود الذي كان يعم الجميع من دون حركة كالعادة، إلا أن تثليم أصرت على رأيها فبادرتها أروى:

ـ ألم أقل إن هناك انقلاباً وأسراراً.

عندما دخلت تثليم غرفتها جلست بقرب الهاتف تنتظر شيئاً ما. قد يكون ياسر. إلا أنها لا ترغب في الاعتراف بهذه الحقيقة.

دق الهاتف، وهذه المرة بلا تردد رفعت السماعة قبل أن تكتمل الرنة الأولى:

ـ رغم أن في رسالتك شيئاً من الهروب إلا أنه أجمل هروب يمكن أن يكون، على الأقل حتى الآن.

وقبل أن تجيب أكمل:

ـ تثليم، هل توافقين علي كزوج؟

صمتت.

وقال:

ـ أستطيع أن أقابل والدك قريباً.

ـ ياسر، أجابت. قبل أن تقدم على خطوة سريعة كهذه تأكد أنك لا تقدم عليها بدافع العطف عليّ أو مراعاة ظروفي أو نحو ذلك. أرجوك، كن صادقاً ولا تتسبب في مضاعفة تعاستي وأحزاني.

ـ أؤكد لك أنني لا أفكر بشيء من ذلك. معلوماتي تشير إلى أن والدك سيأتي الأسبوع القادم وأنا سأقابله في نفس الأسبوع.

الزواج مشروع بائس لهروب من وضع تعيس، رغم سرعته الغريبة، هكذا حدّثت نفسها في فكرها.

كان شعورها خليطاً من الفرح والخوف، من السعادة والرهبة، من رغبة قوية في البكاء إلى رغبة في الصمت. لم تكن تدرك ما تفعله. هي تجد

لديها قابلية كبيرة للفكرة التي طرحها ياسر، وهي الزواج، في أتعس الحالات قد تتحقق مكاسب جيدة، منها البعد عن هذا الشيء الذي يسمى بيتاً، والذي أحضرها إليه والدها بعد أن سحبها من أحضان أمها، لتعيش فيه إلى جانب زوجتيه وأخواتها وإخوتها السبعة من أبيها. وكل هؤلاء لم ترتبط بهم بأي علاقة أو ود سوى أروى، والتي يبدو أنها في حالة معينة تنظر إليه على أنه ود ظاهري ليس إلا.

وتضيف إلى ذلك أحياناً الخادمة ميمونة التي تلبي طلبات زوجتي أبيها. كان يجري تنافس صامت بين الزوجتين أيهما تستطيع استعبادها بشكل أكبر. إلا أنها بعد أن استطاعت فهم الكثير مما كانت تراه غامضاً، كشفت سر هذا السباق في استعبادها. فأبوها هجر الزوجتين وسافر إلى أمها وتزوجها، وكانت هي الضحية في الحالتين. أما الزوجة الثالثة المجهولة فكان لها عالم خاص ولا علاقة لها بما يجري، وليس لها موقف واضح. البقية كانوا أطفالاً صغاراً لا يتجاوزون الخامسة عشرة، وكان أسلوب تعاملهم معها ينطلق من مشاهداتهم لتعامل أميهما معها.

ثلاثة من إخوتها كبار ومتزوجون ويقيمون خارج المنزل. وفي المرات القليلة التي يأتون فيها إلى البيت، لا بد وأن يقدموا إهانة ولو مختصرة إليها، أو هكذا كانت تشعر.

العرض السريع الذي قدمه ياسر كان كفيلاً بأن يحميها من ذلك ويخرجها من دائرة الاستعباد، وكما كانت تحب أن تشير إليها. ورغم قناعتها تلك، كانت تشعر بخوف تجاه شيء خفي. قوتان متصارعتان في اتجاهين مختلفين تدفعانها إلى مجهول، إلى نقاط غير مرئية أو واضحة.

الزواج مشروع بائس لهروب من وضع تعيس، هكذا حدثت نفسها مجدداً.

ـ أي قدر هذا الذي يكمن في الغد؟ أي غد هذا هو القادم؟ أي قادم تكون تلك ملامحه؟ وأي ملامح يتقمصها؟ آه.. ما أصعب البحث في المجهول والغيب، وما أصعب الانتظار لما يأتي ولا يأتي، ما أصعب هذا الفراغ المنهك، والهروب إلى كل الفراغات المجهولة.

قالت ذلك ودخلت في دوامة كسبت منها ساعات نوم طالما افتقدتها.

عندما احتضنت سريرها وتطلعت إلى الساعة كانت تشير إلى التاسعة صباحاً. حاولت مواصلة ألذ (نومة) لها منذ قدومها إلى هذه «القلعة المستعمرة» كما تحب تسميتها، إلا أنها شعرت بأنها أخذت كفايتها من النوم كأنها لم تفعل من قبل.

نهضت وهي تشعر بخفة غير مسبوقة في حركتها. قرصت نفسها، أتت بحركات لا معنى لها لتتأكد أنها هابطة على الواقع وخارج دائرة الحالمين. شعور غريب يجتاحها، وإحساس بطعم للحياة. طعم جديد تتذوقه لأول مرة.

رددت بصمت:

ـ تعساً لهذه اللعبة الحمقاء التي تمارسها الحياة معي.

ركزت واسترجعت كل ما حدث معها، وعندما وصلت إلى فاصلة القرار تجاهلت كل شيء. شغلت تفكيرها بأدوات التجميل وتصفيف الشعر كأنها طفلة تلهو بمكياج للمرة الأولى في حياتها، تحول وجهها

الى ما يشبه صور المهرجين، ضحكت بشكل هستيري غريب ومربك.

توقفت للحظة وسرعان ما أدركت أنها اتخذت القرار. من دون أن تدرك، ومن دون أن تتحدث، اتخذته بشكل مسرحي مع مساحيق التجميل، ورسم مكياجها، وطريقة تصفيف شعرها وانتقاء ملابسها.

ابتسمت، ودخلت في عالم من الخيال.

وصلت إلى نقطة غير مرئية مواصلة ابتسامتها.

حاولت أن تلغي الابتسامة من على شفتيها، أن تغتالها، عندما وجدت أنها لا تناسبها، وأنها تشكل قطعة نشاز على وجهها، الذي لم يعتد على الفرح.

ولم تكن أمامها وسيلة للحديث للبوح إلا تلك المفكرة السوداء.

تركت شعرها ينساب على كتفيها من دون عناية. قفزت بسرعة كالهاربة من الرمضاء إلى ظل أسود، تركت تسريحتها إلى سريرها لتأخذ المفكرة من تحت وسادتها، وبذات الطقوس التي اعتادتها بدأت في تصفحها قبل أن تقرر ما تدونه.

فكرت «متى استبدلك ياعزيزتي المفكرة بجهاز حاسوب محمول متصل بالأقمار؟»، قلبت الصفحات كمن يبحث عن كلمة في قاموس للغات، وتوقفت عند الصفحة التالية.

النقيض. . .

ماما، حبيبتي الغالية، وجودي وحياتي، ابتسامتي وحزني.
لأول مرة أكتب في هذه المفكرة وأنا بعيدة عنك.
هذه المفكرة التي أهديتني إياها منذ وقت مبكر وما زلت أحتفظ بها، وسأحتفظ بها حتى آخر يوم في عمري.

ماما، كم هي الحروف مملة، وكم هي السطور قاتمة ومتبلدة؟
لا أدري ما سر الجفاء الذي حدث بيني وبين هذه المفكرة منذ أن سمحتي لهذا الرجل الذي قلتِ إنه أبي، أن يأخذني من بين ذراعيك، أن يفقدني حضنك، وأنا أرفض وأتسمر في مكاني وأنت تدفعينني بخوف او حرص أو يأس وعجز.

أتطلع إلى عينيك فأجد تلك الدموع المتجمدة التي تحجب الرؤية.
لكن كنت متأكدة أنك كنت تنظرين إلى قدميّ، تتوسلين إليهما ألا يتحركا وأنت لا تقاومين رغبة أبي، فتستسلمين لواقع، يغتصبنا، ونرتضيه مجبرات كواقعنا، ومسافات الزمن تتسع تذوب منذ أن تركتك.
لم أكن أرغب في أن أكتب أي شيء في هذه المفكرة بعيداً عنك.

مرت أشهر على الموعد الذي قلتِ إنني سأعود فيه إليك ولم يحدث ذلك.

عندما أحدث أبي عن رغبتي في السفر إليك كانت له إجابة واحدة: «ستة عشر عاماً وأنت عندها، يكفيك ذلك».

وكان بعينيه الفاقدتين للحنان والعطف يقطع كل حبال الآمال في العودة، وعندما أكرر توسلي إليه يكتفي بتوجيه نظرات ثاقبة تجاهي تخترقني أو تجمد الدم في عروقي، فقد نطقت (بعيب) وأحدثت (جرماً).

يا إلهي، ما هذا الذي يحدث؟ وأي كلمات يمكن أن أكتب فيها؟

وأي عذاب وحزن يمكن أن يملك القدرة على التواصل معي بهذه الغزارة وهذه الكثافة؟!

أمي، أي خطأ ارتكبت؟ وأي جرم فعلت؟

لماذا يحدث لي كل هذا؟

. . لماذا؟

تثليم

احتضنت المفكرة وراحت تسبح في ذكريات تفضحها ملامح وجهها، إنها ذكريات حزينة. سمعت طرقات ناعمة على باب غرفتها لكنها لم تكن متأكدة أنها هي المعنية. فغرفة أروى تقع بجانب غرفتها، ومثل هذه الطرقات الناعمة تكون عادة موجهة إلى أروى، لكن الدق ظل يتواصل.

تأكدت أنها تأتي من باب غرفتها، فتحت الباب. وجدت أروى تقف في مواجهتها مباشرة. تبادلتا تحية عاجلة ودلفتا إلى داخل الغرفة.

للوهلة الأولى لاحظت تثليم أن أختها في صورة غير طبيعية من عينيها الحمراوين والسواد الملتف حولهما.

لم تدع أروى أي فرصة لأختها لتسأل فقالت:

ـ هل تعلمين أنني لم أنم طوال الليل، الساعة تقترب من الحادية عشرة والنصف والنهار في منتصفه، من دون أن أنام!

ـ ما منعك من النوم؟

ـ هكذا، لا أدري، احب النوم ولا أتنازل عنه بهذه السهولة، لكن لا سبب محدداً صراحة..!

ـ انقلاب مثلاً.. (حاولت الابتسام ولم تستطع).

لم تبذل تثليم جهداً للفهم، فهي لا تزال مشوشة الذهن، وتتملكها الذكريات التي عاشت ليلها بصحبتها.

حاولت المجاملة:

ـ يبدو أن في الأمر سراً غامضاً، وغامضاً جداً. ما هو؟

ـ قد يكون، غير أنني أتيت إليك لنتحدث في موضوع آخر، أي موضوع لا يعنيني.

ـ إذاً الموضوع الذي يعنيك هو السبب.

أجابت بصمتها:

ـ هل يمكنني أن أفهم بصورة أكثر تفصيلاً، فقد أستطيع مساعدتك.

ـ تتذكرين عادلاً الذي حدثتك عنه؟

ـ نعم، وماذا بشأنه؟

ـ لقد تزوج.

ـ وماذا في ذلك؟ (وهي تبتسم).

ـ كيف؟ كيف؟ (قالتها بعصبية واحتجاج معلنين).

ـ أمر طبيعي أن يتزوج.

ـ ولكن كان يعدني بذلك، ويقول لي دائماً إنه يرغب في الزواج مني.

ـ يالله، أي كلام هذا؟ هل ما زلت تتوهمين؟

ـ ماذا تعنين؟

ـ أنت لا تزالين صغيرة وهو يفوقك بخمس عشرة سنة. ثم لم تكوني على علاقة قوية به بحسب ما أعرفه، ولا رابط بينكما، ولم تعرفا بعضكما إلا قبل أسابيع، ولم تقابليه، إلا وأنت في أحد الأسواق وبنظرة عابرة. أي أن ذلك كله كان مجرد مغامرات ومرح، وإن صح فهو طفولة أو مراهقة ليس إلا. قالت تثليم بجدية وعصبية ظاهرتين.

ـ كيف عرفتي كل هذا أيتها الفيلسوفة، هو قال لي إنه يريد الزواج مني، ومستعد لذلك والتضحية من أجلي.

ـ قد يكون قال لك ذلك في لحظة مزح، ولا يريد أن يفقدك فيها. ثم إن ما بينكما ليس حباً جارفاً يحرمك النوم. هو يتحدث فقط وأنت في حالة مراهقة، ودعيني أصارحك أكثر، ليس هو الشخص الأول الذي تتحدثين إليه عبر الهاتف. هل تذكرين ماجداً وعارفاً؟ كلها كانت مجرد

أحاديث عابثة وأسماء لا تنتهي. تبدأ باتصال خاطئ وتنتهي باتصال تصحيح.

ـ لكن عادل مختلف.

ـ أنت التي أردتيه أن يكون مختلفاً، لذا شفتيه مختلفاً، أو هو أراد أن يبين لك انه مختلف، هذي كل الحكاية. يا حبيبتي دعكِ من هذه الأوهام.

ثم وهي تبتسم:

ـ وتوقفي عن الدخول في لهو قد تكون نهايته مأساة أكبر من هذه النهاية.

أطرقت أروى برأسها وغادرت الغرفة، بعد أن عبرت عن استيائها من غيرة أختها، كما قالت.

بعد ساعة مرت تثليم من غرفتها وتأكدت أنها دخلت في نوم عميق، فابتسمت.

«من هذا الذي يوزع الثروة داخل هذه المستعمرة.. ليس البكاء وحده السبب، فأنا أكثر من يبكي ويحزن ويتعذب في هذا البيت المستعمرة، قالت ذلك وهي تعود إلى غرفتها، وليس لديها رغبة للفهم أو الإجابة على سؤالها».

أفضل ما اكتسبته من حديثها مع أروى أنها عادت إلى الانشغال بأدوات تجميلها وإعادة تصفيف شعرها واختيار الملابس. دهشت عندما عرفت أن اليوم هو السبت وليس الخميس. ولم تجد تفسيراً لحماسة أول يوم

في الأسبوع، والذي ظل مرتبطاً بالمدرسة والكآبة والملل والشؤم، تمنت إعادة ترتيب أيام الأسبوع ورغبتها في أن يتكرر، فيكون جدولها الزمني الخميس، ثم الخميس الثاني، ثم الخميس الثالث، وهكذا بلا توقف..!

غادرت غرفتها إلى صالة الجلوس، وكان الجميع يبادلونها نظرة تجمع بين الإعجاب والاندهاش والاستحقار، لكنها لم تقرأ إلا النظرة الأخيرة. كان الجميع متفقين على سؤال واحد وبصيغ متعددة عن سر التحول في مواعيد نومها واهتمامها بشكلها الخارجي. كما أنهم متفقون على عدم الرضا.

ليتك تغير عادتك. . . ؟

في محرابك. . يتجسد عالم غير منتهٍ من الخيال. .
والوهم الجميل والهيام. . وأنت. . ؟

غيبي كما يحلو الغياب. .
تذكري أصوات وصوراً وأغنيات. . . تحلق في وجودك. . . .
ثم عودي هكذا. . . .
بللي ريقي المتعطش للحب والحياة. . .
وخيالاً لذيذاً في الفجر البعيد. . قد يأتي وقد لا يمر. . .
قد يقترب ويعاند مسافاته. . أو يرفض حتى أن يطل. . . ؟
فالضباب موجع. . .
والصور التائهة والمعلقة بين السحب تنتظر
شمس عشق لاهبة تبدد الحجب. . .
يا أيتها الأبعد من فجر. . والأقرب من ندى الصباح. . .
المندسة بين الكلمات. .
الفاقدة للملامح. . .

الخارجة من زمن الكلام... بلا صوت... أو كشف..

هل عدت إلى عادتي القديمة... «ليتك تغير عادتك...»؟

لكن هذه العادة اللعينة واللذيذة.. قد تفقدني لياقة أو لباقة الكلمات...

لكنها تستسقي وتصلي ليهطل مطر لا يحمل إلا حروفاً ترسمك..

خيال قادم من حلم..... هل يمكننا العيش بلا حلم...؟

اليوم الأربعاء، بدأ الإخوة الكبار بالحضور إلى البيت، فاليوم للعائلة الصغيرة.

زوجة أخيها الأكبر (محمد) كانت على النقيض من الجميع، وعلى النقيض بصفة خاصة من زوجها في مشاعرها تجاه تثليم. كانت تعطيها شيئاً من الاهتمام، وتحاول أن تتحدث إليها. إلا أن تثليم لم تعطها الفرصة، وكانت تلوم نفسها دائماً على تخليها عن زوجة أخيها (محمد)، وعدم الاستجابة لبناء علاقة ولو شكلية والحديث إليه.

انتهى الجميع من تناول الغداء والتقوا في الصالة مرة أخرى، كانت تثليم تمسك (بريموت) التلفزيون وتتنقل بين المحطات. وكمن ينهر طفلاً صغيراً، قالت زوجة أبيها الثانية بصوت أجش، ـ تقول تثليم لنفسها أنها تشتم منه رائحة العفن ـ:.

ـ أنت تقررين وتختارين بين المحطات ونحن خلفك. دعي الريموت في مكانه، فلسنا على استعداد لإصلاحه.

وعندما لم تجبها، أضافت:

ـ ألا تسمعين أيتها البلهاء.

ألقت بالريموت على الأرض.

لحقه القذف:

حمقاء لا تفهمين ولا تسمعين.

شعرت تثليم بأنها مستهدفة في هذا الوقت بالذات بتفريغ كل الطاقات السالبة والمعطلة. سحبت نفسها بهدوء إلى غرفتها، وهي في الطريق

رأت أحد إخوتها الذكور الصغار، يحمل الريموت ويستخدمه بطريقة عشوائية وعبثية، فيما انشغل الجميع بالحديث من دون أي اهتمام بمشاهدة التلفاز، فأقفلت باب غرفتها.

حاولت زوجة أخيها (محمد) في ما بعد الحديث إليها والدخول إلى الغرفة، لكنها اعتذرت بأنها متعبة ومريضة، من دون أن تعرف لماذا فعلت ذلك. وعزت الأمر إلى غبائها كما قالت:

(كم أنا غبية، لماذا أتجاهل هذه المرأة رغم ما تبديه من عطف تجاهي وحاجتي).

لا تدري ما هو الوقت الفاصل بين دخولها الغرفة والدقات التي سمعتها على الباب قبل أن تفتح لنجوى وتستقر على أحد المقاعد في غرفتها. ولا تتذكر ما دار من حوار بينهما. كل ما تتذكره تلك الورقة البيضاء التي حملتها إليها من ياسر عبر طريق الإرسال التقليدي المعقد الذي يمر عبر الأطفال إلى البالغين، جسر يعبره النساء والرجال للتواصل البريء وغير البريء كل بحسب تقديره.

وتتذكر أيضاً أنها سألت نجوى إذا كان لها علاقات مع أحد، وأخبرتها عن معرفتها لشاب اسمه عابد، كان لها معه منذ أكثر من سنة علاقة حب شريف وتفاهم متبادل وأشياء أخرى مشتركة حدثتها عنها.

كان تركيز تثليم خارج نطاق أي تغطية. فقد كانت تلك الورقة وما تحويه تسيطر على كل تفكيرها. تحرق فضولها وصبرها، واكتشفت أنها ارتكبت حماقة من حيث لا تدري، حين تذكرت أنها أهملت نجوى

بطريقة غير مباشرة، رغبة في إنهاء الزيارة، لامت أنانيتها وحمقها، وعجلتها، شعرت بالندم مقابل تصرف غير لائق مع صديقة تتحمل مخاطر اجتماعية في تمرير رسائل مفخخة، ولكنها سرعان ما تناست ذلك وهي تفتح الرسالة وتقرأ:

«سأبتلع الجنون، وأحدق في سماء الهلوسة،
إن كنت بعيدة عن بياض جنوني، وترنيمة زماني،
سأراقبك كما يراقب المجنون دمية حياته،
سأتحدث إليك كما يتحدث المجنون إلى نفسه،
سألهو معك في بستان الحياة الأخضر..
أجري خلفك، أبحث عن ذرة من العقل،
وسأبقى أحبك، كما يحب المجنون دنياه، بلا مقدمات..
وإن سلبتني العقل، فلقد سلبتني نفسك،
ترفقي على بقايا العقل، وبقايا إنسان انكسرت عيناه، وتلاطمت شفتاه بلا رحمة».

ياسر

احتضنتها، قبلتها، ضمتها إليها بقوة، ابتسمت، حركات لا إردية لا تفسير لها، إلا تلك القشعريرة اللذيذة التي تغمر جسدها اجتاحها شعور بالفرحة كما لم يكن من قبل، شعرت بأنها تحتضن الحياة والحياة تحتضنها، وأن كل شيء في الكون يقدم لها تحية المساء ويدعوها إليه، همست بتردد:

«الحياة قد تكون أجمل ما يمكن..».

ارتجفت، خافت، ثم ذهبت في إغماءة لم تفق منها إلا على رنين متكرر للهاتف. نظرت إلى الساعة فوجدتها تقترب من الواحدة والنصف صباحاً. أدركت من على الطرف الآخر، رفعت السماعة بخوف وتردد. دار بينهما حديث مجاملة عام. قبل أن تشكره على الرسالة بحب، فلم يجب وقال:

ـ غداً أو بعد غد سيأتي والدك. تحدثت إلى أمي وأبي بذلك، وكل شيء جاهز لمعركة أبيك. علت ضحكته.

ـ كما ترى، أنا واثقة من حسن تدبيرك.

ـ بل كما ترين أنتِ، أنا واثق من رغبتنا المشتركة وهذا الأهم.

عندما حان الموعد المحدد، والإعلان عن قدوم ياسر مع عائلته في زيارة إلى والد تثليم لموضوع يخصها؛ أصيب الجميع بدهشة وصدمة لا حدود لهما بمن فيهم أروى، والتي فهمت الموضوع على منحى آخر مختلف عن الجميع. حيث رأت أن تثليم كانت خلف ابتعادها عن (عادل) بطريقة ما، أو أنها على الأقل فرحت بهذا الابتعاد لتتفوق بالزواج قبلها..!

زوجتا أبيها لم تكونا راضيتين على أن تتزوج (ابنة الغريبة) ـ كما يسمونها ـ بهذه السرعة، وقبل أن ينتهي سباق الاستعباد عليها. أما إخوتها الكبار والصغار فلم يكن لديهم ما يجعلهم يعترضون أو يوافقون، فهي لم تعني لهم شيئاً في أي يوم كما ولم يهتموا بها، لكنهم في نفس

الوقت لا يستثيغون الموضوع بكامله، هم أقرب إلى الرافضين لعلاقتهم بتثليم كأخت لهم، بل ظلوا يعاملونها كدخيلة ثقيلة ومملة ومعقدة.

الأب الغائب الحاضر، لم يكن لديه أي موقف مبكر يتخذه في هذا الخصوص، إلا أنه رحب بهذه الزيارة من خلال إشرافه بنفسه على الإعداد لحفل الضيافة للعائلة، فالأب في النهاية يريد الستر لابنته، والستر يعني أن تتزوج بكائن من كان، وأن تكون العوائد المادية مجزية، مع الشرط الأبدي والدائم في تكافؤ النسب، وأصالة العرق، وشجرة العائلية وتجذرها إلى ما قبل عصر الجاهلية، ولا يهم هل هي شجرة طيبة أو خبيثة، منجزة أو مدمرة، جاهلة أو متعلمة، حقيقية أو وهمية، كل ذلك لا يهم طالما أن هناك قلم رصاص يمكن له أن يرسم ظل شجرة لا تغني ولا تسمن من جوع سكانها..

لم يكلف والد تثليم نفسه بالانفراد بابنته واطلاعها على الأمر ومعرفة رأيها، فقد كان كما يبدو قد رسم الخطوط العريضة التي يتم بموجبها الاتفاق بين الطرفين وحدد مطالبه المالية سلفاً.

بعد الزيارة ومفاوضات استمرت ساعة، لم يعلن عن تفاصيل ما تم فيها سوى معلومات محددة سربت بطريقة مقصودة، تفيد بأن الأب أبدى موافقته الأولية لأسباب اجتماعية على أن يظلا مخطوبين لفترة لا تقل عن ثلاثة أشهر. تثليم علمت بالتفاصيل الكاملة في وقت متأخر من ليل اليوم نفسه الذي تم فيه الاجتماع، ومن خلال المحادثة الهاتفية.

تثليم من خلال متابعتها الدقيقة وحرصها على معرفة كل ما يحدث،

توصلت إلى استنتاج هو أقرب للواقع من موقف أبيها الذي اتخذه. إذ ترى أن والدها اتخذ هذا القرار بعد دراسة دقيقة للظروف العامة ولمواقف كافة الجهات داخل البيت، وبالطبع الاستجابة لمطامعه المادية مقابل الموافقة، بما يشمله من عائد مجزٍ يسمى «المهر: وتجهيزات اضافية، إلا أنه فضل صيغة سرية، مكتفياً بإعلان الخطبة شفوياً ولعائلة ياسر وحدها».

هذه الصيغة ـ على ما كانت عليه ـ لم تكن مرضية لتثليم أو لياسر وعائلته.

زوجته الأولى الهادئة نسبياً ـ علقت علانية للمرة الأولى قائلة:

«أنا أعرفه جيداً ولديه شيء آخر يفكر به، أو لعل ذاكرته عادت إلى ماضٍ قديم. ونحن لا نملك خياراً أمام ذلك».

وعندما حاول ياسر لاحقاً وبتحريض من تثليم أن يحصل من والدته على تفاصيل أوضح لما قالته الزوجة الأولى حينها، رفضت ذلك وأوكلت الأمر إلى الأشهر القادمة.

المكسب الوحيد الذي تحصّل عليه ياسر من هذه الخطبة تتمثل في استحقاقه الشرعي لزيارة منزل خاله (فهاد) ـ والد تثليم ـ حتى في الأوقات التي يكون فيها خارجاً ضمن تنقلاته المتعددة غير المعروفة الأغراض والأهداف، لكن زياراته تلك كانت تتم بحضور أروى وعدد غير قليل من الأطفال الصغار الذين لا يدعونهما حتى يغادر المنزل، بحسب التوصيات العائلية المشددة.

ولديهم دائماً مهمة وحيدة طوال الزيارة وهي مراقبة تحركاتهما

واتجاهات عيونهما بدقة، والغمز واللمز والتدخل بشكل طفولي فضولي لا يمكن تجاهله أو التخلص منه. حين أعلن عن امتعاضه من ذلك ردت تثليم:

ـ صدقني إن الأمر خارج عن إرادتي ورغبتي وحتى إرادتهم ورغبتهم. هم مكلفون بذلك..!

وحين حاول أن يسأل عمن كلفهم بذلك، خرج صوتها حزيناً مخنوقاً:

ـ أحسب أنك تعرف. لقد عشت طوال الفترة الماضية في حالة أكثر عبثاً وغثاء من ملاحظاتك.

حاول جاهداً تهدئة نزقها، وأنهى المحادثة بعد ذلك.

عندما خفضت سماعة الهاتف شعرت بضيق تطور إلى شبه اختناق. فتحت تلك النافذة الصغيرة من غرفتها، واتجهت إلى المطبخ لتعد فنجان قهوة في وقت متأخر. وبعد أن عادت إلى غرفتها لجأت إلى تلك الحقيبة القابعة تحت السرير وجذبتها لتخرج «علبة السجائر». تحسست السجائر فوجدتها ناشفة. سحبت اثنتين خففت التبغ منهما تاركة مساحة للهواء، وأخذت تدخن وهي متكئة على النافذة لتطرد الدخان خارج الغرفة حتى لا يفضح أمرها. أنهت المهمة، وعادات إلى سريرها بعد أن وضعت كل شيء في مكانه. تذكرت أنها لم تذكر لياسر موضوع السجائر هذا، لكنها ذكرت نفسها أنها حالة تدخين عابر..

ركزت نظرها في نقطة ذات امتداد. حولت بصرها إلى اتجاه آخر. فارتسم لها في الأفق من نفث الدخان التي استطاعت التسلل إلى داخل

الغرفة كلمة (المجهول). سقطت دمعة، وكانت بمثابة دعوة من مفكرتها السوداء. اتجهت إليها بعد أن اطفأت الأنوار سوى ذلك المصباح الرديء المتدلي من حافة السرير العلوية بإهمال، لكنه رفيقها ومبدد الظلمة.

هيكل، مسمار ووجوه قاسية . .

لم أرَ منه حناناً أو عطفاً أو مشاعر ود تجاهي سوى تلك المرة، سوى ذلك الوقت الذي رأيت فيه كوكبنا يحتضر من تحت قدميَّ.

سوى تلك اللحظات التي كان الكون كله ظلمة كالحة يغطيه سواد يفوق سواد شاربه الكثيف، المبالغ في حجمه وشكله.

في تلك اللحظة التي رغبت لو أن الأرض تتزلزل من تحتي وتنشق وتبتلع القوة والصلف والصدى في قلوب أولئك الناس قبل أن تبتلعني.

تلك اللحظات التي فاق فيها عمري عمر أي كوكب وُجد منذ الخليقة. ووصلت فيها إلى درجة من التجمد تفوق تجمد القطب.

تلك اللحظات ضاعفت فيها آلاف المرات كل التفاعلات الكيميائية والفيزيائية داخل جسدي.

كنت أحتاج إلى أن أحيا مئات السنين لتجربة زلزلةٍ بتلك القوة وبذاك الحجم.

كانت في داخلي حركة لا تتوقف، لا تتوقف تشقني نصفين، نصف ميت بلا معنى، ونصف يتهاوى في جحيم لا نهاية له.

كنت أشعر بأن محراثاً على أرض جدباء يتحرك داخل جسمي جيئة وذهاباً في أجزاء من الثانية.

كانت لحظات مت فيها ألف مرة، وطعنت آلاف الطعنات، وحملت الجبال على أكتافي، وخرّت كل شعرة دموية ساجدة داخل جسمي تنتظر ما يمكن حدوثه.

كانت تلك هي المرة الوحيد التي شعرت فيها بأن من أخذني من بين ذراعيّ أمي، بتلك القوة والرعونة قد يكون أبي.. !

سأجعل تلك اللحظات أكثر تحدياً رغم عجزي وعجز الحروف على ذلك، لكن سأحاول محتفظة بحقي في المحاولة.

عندما هبطت قدماي إلى أرض والدي، وانتقلنا إلى المستعمرة التي ستضمني، وكانت أشبه بقذفي من العلو إلى ساحة مجهولة ومهجورة، لا حياة أو أثر فيها، أشار أبي بيده إلى مدخل مظلم عرفت أنها غرفة نومي أو سجني، لا فرق، كان هو سجاني أيضاً.

حملت الخادمة ميمونة حقيبتي الوحيدة إلى داخل الغرفة، وهي ذاتها التي احتفظ فيها بعلبة السجائر. كانت تلك أول مرة أشعر فيها بأن الخادمة هي الأقرب إليّ من الجميع، هي حبل وصلي وإحساسي بأني ما زالت في دنيا البشر.

ألقيت نظرة على الغرفة. أثاثها ثلاث قطع: سرير ملحق بدرج، وتسريحة خشبية تعيسة ومتقادمة، ودولاب للملابس أبوابه نصف مخلوعة. وهذا الأثاث كما بدا فإن أكثر من شخص قد استخدمه ولفترة طويلة.

عدت إلى حيث يجلس أبي وقد اجتمع الكل حوله. اقتربت منه وعرفهم بي وعرفني بهم. تأكد شعوري بأنني جسم غريب قادم من كوكب آخر، لولا نظرات الخادمة ميمونة، التي أشعرتني بوجود الإنسان حولي.

سرعان ما أقنعت نفسي بأن الأمر طبيعي. ووجَّه والدي أمره إليّ، أن آخذ إغفاءة بعد رحلة سفر مرهقة، وفعلت ذلك بصعوبة بسبب تغير المكان واختلافه. فلأول مرة أنام بعيداً عن والدتي.

لا أعرف كم مر من وقت، قبل أن يأتي يدعوني إلى حضرة أبي في المجلس الكبير، والذي فهمت في ما بعد أنه لا يفتح إلا في حضوره.

اقتربت من المجلس وأشارت أختي أروى إلى والدي أنني أقف عند الباب. رفع أبي صوته يناديني. وقبل أن أستجيب لصوته كنت قد لمحت ثلاثة وجوه شهباء لم أرها أو أتخيلها من قبل، وجوه قاسية يبدو أنها قاومت عوامل التعرية أكثر مما يجب، وأقداح من الشرار تنطلق من عيونهم. تعريني بنظراتها القاسية، تخترقني وتتفحص هذا الجرم الغريب، وقبل أن أدخل كانت أروى قد خرجت، وأدركت أن ذلك تم بطلب من أبي.

عندما وصلت إلى منتصف المجلس لم يكن سوى أبي وهؤلاء الثلاثة واثنين غير مباليين بما يحدث، عرفت بعد ذلك أنهما إخوتي الكبار.

توقفت في المنتصف والجميع ملتقون في صدر المجلس الكبير، مقابلي تماماً، تحمل أيديهم فناجين قهوة تتمرجح بين أيديهم في اتفاق

ونسق واحد. اخترقت أنفي رائحة أدركت في وقت لاحق أنها رائحة الهيل والمسمار معاً. كنت كمن وصل إلى عالم جديد ومخلوقات جديدة، ولم أدرك بعد من هم هؤلاء الجالسين على يسار أبي. وأنا في خضم هذه الحيرة أطلق أبي عنان صوته.

ـ هذه تثليم ابنتي من خالدة طليقتي، وقد أحضرتها لتعيش معي وتحت ناظري، خصوصاً أنها بلغت الآن سن السادسة عشرة، ووجدت أن هذا هو الوقت الأمثل لتأتي إلى هنا وتنضم إلى باقي الأسرة ستراً وخوفاً عليها:

ثم وجه الكلام لي.

ـ تثليم، تقدمي وسلمي على أعمامك نواف وفرحان وراشد.

وقبل أن أتقدم خطوة كان الثلاثة قد انتفضوا من مواقعهم كأن حية لدغتهم، وغادر اثنان المكان إلا الثالث منهم، وقال موجهاً الكلام لأبي:

ـ لسنا على استعداد للإيمان بما قلت، فنحن لم نسمع عن طليقتك البعيدة ولا نعلم أنك تزوجت من تلك البلاد. وأجد نفسي مضطراً لاختيار الانضمام إليهما. ثم كيف لنا ولك أن نتأكد أن هذه ابنتك وليس سواها. ليس الأمر بهذه السهولة، وفي هذا العمر، وبعد هذه السنين.

أتذكر لحظة الضعف الوحيدة التي وجدت عليها أبي، وأتذكر أن إخوتي اقتربوا من أبي يعزونه، وأتذكر أني كنت أبحث عن اتجاه الأرض قبل أن أهوي..!

ما أصعب أن انتزع من أحضان أمي ودفئها وحبها وحنانها وودها، وما أصعب أن يحملني هذا الرجل الذي جاء بعد ست عشرة سنة ليقول إنه أبي. إلى هنا، وفي موقع غريب عني وغريبة عنه، يأتي من يقول إنني لست ابنته وإنه ليس أبي وإن أمي ليست زوجته. أي حال ينتظرني؟ أي مستقبل سيلتهمني؟

أي قساوة؟ أي عفن؟ أي جبروت؟ بل أي قلوب هذه التي يحملون في صدورهم؟ أي شظايا تلك التي تتطاير من عيونهم؟

الحنان الذي تجلى من أبي والعطف الذي تمخض منه جاء بعد أسبوع من مرضي وعدم قدرتي على الحراك عندما اقترب من سريري ومرر يديه على شعري، قبلني وقال:

ـ أنت ابنتي وهم يدركون ذلك الآن.

بعدها لم تلمسني تلك اليد بمثل ذلك الحنان مرة أخرى، ولم تكلمني تلك الشفاه الغليظة التي يخفيها شارب كث أسود بتلك الطريقة من العطف والود. ليتهم لم يصدقوا أني ابنة أخيهم.. ولم أر وجوههم التى ما زالت تخترقني إلى اليوم، إلى هذه اللحظة!

لكن. ماذا لو كنت ولداً هل كانوا سيحتضونني ويصافحونني ويبارزونني.. هل السبب أنهم لم يسمعوا عني من قبل؟ أم لأنني أنثى مغضوب عليها في هذه الأرض..؟.

لست أدري . . ؟!

استمر ياسر يلتقي بتثليم أوقاتاً متفاوتة في منزلها. لم تكن اللقاءات مكتملة. ورغم ذلك كان حريصاً على إرضائها وتلبية طلباتها. ووجدت تثليم فيه متنفساً واسعاً لها، ووسيلة استفادت من خلالها في تحسين علاقتها بأروى وزوجة أبيها الأولى وبعض الأطفال الصغار، طبعاً لا شيء بلا ثمن، فالخدمات التي وهبها ياسر من أجل تثليم للجميع وبناء على طلب منها كانت هي التي أحدثت هذا التغير الطفيف في تعاملهم وتطفلهم.

كان يقوم بجولات متكررة للأطفال الصغار، ويوصل الزوجة الأولى إلى السوق وأهلها، بالإضافة إلى تلقيه الاتصال في أي وقت من تثليم أو من يتحدث باسمها، لإحضار احتياجات ضرورية للبيت أحياناً وغير ضرورية أحياناً كثيرة.

تثليم وجدت في سلوك ياسر وخدماته بالإضافة إلى كونه يقدم لها فرصة لتحسين علاقاتها، فرصة لها لممارسة شخصيتها الخفية الآمرة والناهية، لكن ياسر كان يقبلها بدافع حبه لها، ولا يزعجه أن تستعرض قدراتها وإمكاناتها.

التحول في أسلوب تثليم ليس تحولاً غريباً، بل هو تفريغ منها لضغوط وممارسة احتوتها لفترة طويلة بالرغم من ارتكابها لخطأ مبكر اختيار الضحية أو الوسيلة لذلك. كما أن تلك الرسالة الأولى التي بعثت بها إليه لم تكن حروفاً حقيقة صادقة بقدر ما كانت هروباً من الدخول في حوار ومواجهة معه حول موقفها. إلا أنه لم يدرك هذه الحقيقة بالشكل الذي يجب، وهي لم تكن قادرة على التورع. وقد يكون ذلك نتيجة لإحساسها بالرغبة في الانتقام من الجميع والانتقام من كل شيء.

تقول أروى لأمها إن تثليم لم تكن تحب ياسر إلى تلك الدرجة التي كان هو يحبها، ويتمادى في إسعادها وتحقيق رغباتها. وكانت في فترة تحتاج فيها إلى مخرج ينقذها، وهو كان مناسباً ومندفعاً باتجاهها حباً وعطفاً وأملاً، وبالتالي فهي لا ترغب في التفريط فيه وفقده في وقت حاصرتها فيه الوحدة والحزن والعزلة النهائية، وكان هو المخرج من كل ذلك.

حاول ياسر بطريقة ذكية في أكثر من مرة التلميح إلى تثليم أنه إذ يقدم هذه الخدمات المتعددة إنما بدافع من حبه لها وليس له علاقة بالآخرين، في إشارة منه إلى أن خدماته ووقته التي يهبها يجب أن تتوقف عند حدود حاجياتها هي. لم يتبدل الحال وظلت على النمط السابق. ولم يكن هو يمتلك القدرة على الرفض.

- من غيرها، نجوى يمكن أن تنهي هذا المأزق.

فكر ياسر، وشرع في الاتصال بنجوى لتتولى إيصال ذلك مباشرة إلى تثليم، على أن تجعل الأمر ناتجاً عن ملاحظاتها الخاصة، واتفقوا على التفاصيل.

في السابعة مساء كانت نجوى تجلس إلى جانب تثليم في زيارة، قالت إنها زيارة عابرة. وبدأ الحديث يتشعب حتى وصل إلى تفرعات متعددة، أنسى نجوى الموضوع الذي جاءت من أجله.

كانت تثليم حريصة هذه المرة أن تسمع تفاصيل علاقة نجوى، فلديها حاجة ملحة ورغبة متزايدة لمعرفة المزيد عن صديقها عابد الذي سبق أن حدثتها عنه.

ولم تكن نجوى تحتاج إلى الكثير من الجهد لتفضفض بكل معلوماتها عن عابد وطبيعة علاقتها به وأبرز المواقف التي مرت بها خلال فترة صداقتهما منذ أكثر من سنة ونصف السنة إلى اللحظة التي تجلس فيها إلى جانب تثليم. ولم تنسئ أن تخبرها بالأهم، وهو توقعها أن تتم الخطبة رسمياً في القريب العاجل.

كان حديث فتيات منهمراً من جبل من دون توقف.

وعلى الرغم من تلك الأسئلة الدقيقة، والتي تصل أحياناً إلى أقصى درجات الخصوصية، كانت نجوى تجيب بنفس الحماسة التي بدأت بها. لم تنسَ الإشارات التى جاءت من أجلها، لكنها كانت على عجل فقد استنفدت طاقتها في الحديث عن علاقتها ومستقبلها وأمنياتها ومشروع الخطبة القادم، وحين غادرت المكان ظلت تثليم تبتسم بقوة

وتطرح مقارنة بين حالة نجوى وأختها أروى وبينها هي، ولم تجد قواسم مشتركة بينهما.

وانتابها شعور بالعزلة التامة قتل ابتسامتها القوية تلك.

فكرت في أن تغادر غرفتها كتحدٍ لذلك الشعور، ولكنها فشلت، وأخذت قلماً وبدأت تكتب كلاماً لم تدرك المعنى منه:

«دمٌ.. وطريق يزداد تفاؤلاً.

وقيمة أنا، في تيار منفرد بلا اتجاه.

واقفة

أصوات خشنة تتعالى من بعيد،

وصوت الرصاص يغطي ألحان الأصوات النشاز وأصوات العربات المتلاطمة في الطريق.

واقفة أتأمل طلقات الرصاص، حبات الدماء، وقلبي مستقر في مكانه.

تحت أقدامي شبه جزيرة الخطر، وبداخلي أصوات مدوية.

سأصطف في طابور الجثث..

وسأبقى أغنية للموت..

وجنة تتلألأ لنفسي..

لا تقدموا أسئلتكم، فلا جواب...

يكفيكم رائحة جثتي، واتجاه دمائي وأعمدة البارود ودخان الحرائق..».

بخلاف عادتها لم توقع اسمها في النهاية بل تركتها حروفاً مجهولة،

وألقت بها جانباً لترى من يدق باب غرفتها، وكانت الخادمة تعلن لها أن ضيفاً بانتظارها في صالة الجلوس. ألقت نظرة على الغرفة وتأكدت أن الفوضى في مكانها، أغلقت الباب.

استقبلها ياسر بابتسامة، رمت عليه تحية باردة وجلست بالقرب منه، استمرا صامتين لدقائق كان فيها يركز النظر باتجاهها، وكانت هي ترى كل شيء ولا شيء. وفي لحظة تيقن أن الصغار منشغلون بمطالعة إحدى المحطات ليلامس يدها. ارتاحت لهذه المبادرة الشجاعة، إلا أنه سحب يده بسرعة عندما بدأ أحد الصغار يتحرك بصخب مقصود.

كرر المحاولة أكثر من مرة، وكانت يداه تمتد إلى مسافات أبعد، أكثر دفئاً ربما، ووجنتاه تكتسبان حمرة أشد. وفيما هو يستعد للمغادرة تبعته إلى الباب الخارجي.

كانت تمني نفسها بمبادرة أشجع يقدم عليها ليؤكد لها أنوثتها، إلا أنه لم يدرك ذلك، أو لم يجد الشجاعة الكافية لتجاوز الحدود التقليدية المرسومة.

عادت إلى غرفتها وهي تمرر أناملها على ما وقع في يدها ووصلت إليها يده الرجولية الدافئة. قد تكون يد أول رجل يصافحها، ويتحسس البعض الظاهر من بشرتها!

في اللقاءات التالية ظلت تحاول بصمت وصمود في استحثاثه على مبادرة جديدة، إلا أنه لم يكن يقوم سوى بلمس يدها وضم يدها في أحيان قليلة ونادرة بين يديه، واحتضانها بسرعة فائقة. وهي تحدق به

وتشعر بأنها بحاجة إلى أبعد من ذلك، تحثه بنظراتها، بأنفاسها، بتلاعبها بخصلات شعرها، وبعطرها الذي يزداد كثافة كل مرة.

كانت تريد على أقل تقدير أن تجد منه ما وجدته نجوى في إحدى لقاءتها بعابد وهو يقرص خدها من خلف برقعها. ويتحسس شفتيها قبل أن يحتضن أطراف خصلات شعرها.

تذكرت أنها حدثت نفسها في الوقت نفسه حين أخبرتها نجوى «أي طموح هذا الذي يجمع المحبين من خلف برقع ساتر».

وفكرت بهذا الحب المقدس في إطار مساحات الأطراف الظاهرة، في هذا الاحتشام الذي يتوق إلى الانعتاق بصمت الأطراف وخوفهم الدائم، بتلك الحدود المرسومة على الجباه والذقون والشوارب الكثة، بهذا الزيف الذي يجيد خداع الواقع، ويتقن نفاقه.. فيما العقول سلعة رخيصة، والأجساد محطمة، والأرواح شاردة على هذه الأرض الطيبة.

وفي كل مرة ترى ياسر فيها كانت تسعى إلى إحداث أمر جديد، إلى تحريك شيء بداخله ولكنها كانت تفشل، وكان هو دائماً يمنحها هذا الفشل.

اجتاحها إحساس بأنها في مواجهة حقيقية معه، وأنه يتلذذ بتعذيبها بعدم منحها الإحساس الذي تستحقه، والرغبة بملاطفة أنثى تشك أصلاً في أنوثتها، لماذا يمارس لعبة صامتة معها؟

فشلها في تحريضه، وفشلها كامرأة في محاولة إغواء، جعلت درجة زعلها الصامتة تتزايد، حنق لم يكن لها أن تعبّر عنه إلا من خلال إيكال

مهمات جديدة له، يتعلق الجزء الأكبر منها بواجبات منزلية لا علاقة لها بها. متجاهلة إشارات نجوى، ورغم تعدد هذه المهمة وتكرارها في اليوم الواحد، إلا أنه لم يمتنع أو يعتذر ولو بحجة غير حقيقية، وظل يفسر ذلك ببساطة وببلادة أحياناً.

لم يتوقف إحساس تثليم بالعزلة حتى في الأوقات التي تلتقيه فيها، أو تتحدث فيها إلى أروى. وتزورها نجوى وهي تحمل لها باقة من المواقف والأحداث عن صداقتها، أو حتى وهي تخرج في أوقات قليلة بصحبته وجيش من الصغار في مشوار قصير. كانت تشعر دائماً بحاجة لمن ينتشلها من دائرة وحدتها وعزلتها، والأدق فشلها في إغواء رجل، هل هو فشل أنوثتها، أم قلة رغبة جنسية عند خطيبها، تجاهلت السؤال فالرجل في قومها غير قابل للتشكيك في فحولته.

أصبحت أكثر مكابرة أمام زوجات أبيها وأخوتها. تحدث مشادة كلامية وفي اللحظة التي ترى أن الأمر سيتطور من مجرد أحاديث هائجة إلى استخدام القوة تنسحب بسرعة فائقة. إلا أنها ظلت تحمل إحساس الوحدة والعزلة والفشل.

في إحدى زيارات نجوى المتواصلة إليها قالت إنها ترغب في اجتثاث هذا الإحساس من داخلها، أن تجعلها تقترب منها وتتخذ نمطاً مشابهاً لحياتها. ومن دون أن تعلق أسرّت إليها نجوى بسر يفوق في خطورته الإعلان عن موقع للتجارب النووية تحت سطح أرض مختنقة بالبشر العزل من الحياة، أو هكذا فسرته تثليم.

قالت لها:

ـ غداً سأقابل عابد وسنلتقي أنا وهو لدقائق نتبادل خلالها الرسائل. وسنذهب بجولة في سيارته الجديدة في المدينة، هل تتخيلي أن أتجول في شوارع المدينة برفقة زوج المستقبل. . ؟ أليس هذا رومنسياً ومثيراً. . ؟!

أصابت تثليم رعشة غريبة، لم تتوقع أن المغامرة يمكن أن تصل إلى هذا الحد من المجازفة بلقاء مباشر، وجولة في مدينة محرمة. لاحظت نجوى ذلك وتابعت:

ـ مجرد لقاء عادي، يقدم إليّ رسالة وأعطيه مثلها، وجولة في شوارع مزدحمة بالبشر وسيارات الأجرة والنقل. .

لم تتخيل ذلك. فالمعلومات التي تحملها عن طبيعة هذه الأرض والبيئة منذ أن جاءت إلى هنا ليس فيها صراحة أو ضمانٌ يوحي بإمكانية حدوث مثل هذا اللقاء. لكنها ظلّت مغرمة بالفكرة إلى اللانهاية، وانضمت إليهما الدهشة وخوف عندما بادرتها قائلة:

ـ وأنت ستأتين معي، أنا وأنت والسائق، ولن يستمر ذلك أكثر من نصف يوم، بعدها نعود إلى منزلنا نكمل ليلتنا هناك.

العرض كان جيداً، بل مغرٍ، لكن كيف لمن ولدت في الظلمة واعتادتها أن تفرح بمغامرة مثل هذه خارج أسوار القلعة، ولكن مشاعرها لم تكن مستقرة أو محددة وموقفها غامض، وإن كانت تجربة جديدة بالنسبة لها تطلع خلالها على الكيفية التي يتم بها هذا اللقاء، والجهد النفسي الذي يتبعها. هل تأخذها المجازفة إلى أبعد نقطة ممكنة، من دون أن تدري، وجدت نفسها توافق على العرض بعد أن تكفلت نجوى بإقناع الآخرين بمرافقتها غداً إلى زيارة عائلية خاصة بمناسبة خطبتها.

لعبة . . !

كيف لمثلي يا سيدي أن يتحسس عينيه وملامحك غائبة . .

من يكشف غموض الأسئلة؟ .

عشقك مغرٍ وأخاذ . .

والعيون، لا يمكن أن تفرق بين الحقيقة والخيال . .

من يرسم الصور، يكتبها معك . . ؟

وأنت سبب الأسئلة . . وسبب تسلسلها . . !

وبعد . .

تأتي كلماتك وترانيمك وأشعارك المنثورة ورجولتك . .

اين كنت تضع حروفك قبل اللقاء . . ؟

هل كنت تنثرها للفضاء وحسب . . ؟

ماذا عن الباقي منها . . . ؟

يقولون إن الاعتراف هو سيد الأدلة . .

وهو عندي السيد والسيدة . .

وسأبدأ بفعله . . وتكفي الأسئلة . .

لأحدثك عن لغة محرضة..
حيث مطالعتك هي ترانيم المساء..
متعة الكلمات أو رذاذها الذي ساقه خوفاً..
وكما انسحابك وهمسك الأخاذ الفاضح..
أجوبة معلقة لأسئلة مركبة..
تربط الإيقاع بالأجوبة..
تأخذني إلى خيال يغفر لك سهوك المتعمد!
ورجولتك المسجونة في قعر العادات..
وأعيد تقمص دورك..
لعلّني أجد في سهوك بعض المفضوح أو المسكوب...
قبل أن أكتشف أن هروبك صالح لكل الاستخدام الآدمي؟
استعاراتك تكشف شخصية متأملة.. أم فحولة غائبة..؟
تستفز اللغة ذاتها.. قبل أن تعيد صياغتها..
قبل أن تقذف بها.. في شكل جملة ملغمة..
ما حاجتنا للأسئلة..؟
حاجتنا لكلمات تكتب كل شيء تخبر عن كل شيء..
أعيد تركيب أو تفكيك الحروف..
اعتراف.. إنك تجيد لعبة الهروب أو الخوف بامتياز..
الجواب سيد أيضاً..
دمت رجلاً.. وأكثر..
ودمت محرضة!

مغامرة أو مقامرة . .

في اليوم التالي، ومع أول المساء، أصبحت تثليم جاهزة وبانتظار قدوم نجوى، وبعد تأخر عن الموعد المحدد بنحو ساعة حضرت وسط ارتباك ظاهر.

اعتذرت بسبب انشغال السائق مع والدتها، لم يطل الانتظار حتى بدأت السيارة تحرث الطريق والجميع صامتون. لامست تثليم بحركة عفوية يد نجوى فوجدتها باردة رغم حرارة الجو، ولم تدرك السبب إلا بعد مضي وقت طويل، حين بدأ صوت نجوى يخرج ضعيفاً ومشحوناً، فقدرت الوضع النفسي والخوف اللذين يهزان أطرافها.

ليس من السهولة أن تتخيل ماذا يحدث لو كشفت فعلتها، دائماً ما نقدم على مغامرات عدة بحماسة، لكن حين يأتي وقت التنفيذ تبرد الأطراف ونرتد إلى واقع لا يرحم، وهنا في هذه الأرض وفي أبسط الحالات قد تكون النهاية، نهاية بنت في مجتمع لا يرحم، هذه المقامرة مهما كانت أسبابها أو مبرراتها أو براءتها.

عندما اقتربوا من الموقع المحدّد أشارت نجوى إلى السائق بالتوقف. وترجلت نجوى من السيارة ووجهت نداءها إلى تثليم تطلب منها أن تتبعها

تاركة مسافة قصيرة بينهما. امتثلت للإرشادات بدقة وتبعتها، كانها لم تسر في طريق عام قبل هذا اليوم ومنذ زمن طويل مضى، مشيتها ظهرت مرتبكة وتتطلع نحو كل من حولها من الأجسام الحية والجامدة بريبة ورغبة فاحصة، لوهلة نسيت أن غطاء وجهها الأسود الكثيف يحميها من أي احتمال لواحد في المئة ألف أن يعرفها من يراها خلف هذا الغطاء الأسود، هذا على افتراض وجود من يعرفها أصلاً، لكنها كانت تعتقد بأنها مكشوفة لكل العالم من حولها، هذه هي الطريقة التى تعرفها ويعرفها كل بنات جيلها السابق واللاحق، العيش بلا ملامح خلف طبقات السواد الكثيف، لكن التعود جعلهم يعتقدون بأن العالم الخارجي يراهم كما يرونه.

فيما تجيد أخريات الكسب المطلق لحرية لا حدود لها بفضل هذا القناع المزدوج الأغراض.

على بعد أقل من ٣٠ متراً من موقف السيارة يقع باب السوق الذي دلفتا منه. بحثت عينا نجوى في المكان ثم اتجهت إلى الجهة المقاهي العائلية، وبخطوات خائفة، وقبل أن تصل إلى طاولة منفصلة في زاوية ركن المقاهي تطلعت إلى الاتجاهات الثلاثة الأخرى ثم تقدمت.

وقفت بالقرب من الطاولة، كمن يبحث عن شيء فقده في المكان، وما هي إلا ثوانٍ حتى وقفت وانطلقت تتبعها صاحبتها إلى باب مقابل، يؤدي عبر أحد المقاهي إلى مواقف أخرى جانبية، هناك كانت سيارة سوداء مظلل زجاجها، أنزل النافذة الجانبية وأشار بيده، بسرعة مذهلة استقرت نجوى في المقعد الأمامي، واندست تثليم كمخدرة في المقعد الخلفي.

لم تكن قادرة على سماع حديثهما المنطلق مع أنغام موسيقية، اختارها عابد بعناية، والحقيقة أنها لم تكن بحاجة لأن تسمع حوارهم، كانت غارقة في المغامرة والتجربة وحرمتها، وكانت أفكارها تأتي على استفهامات حارقة عن المحرم والثقة والخوف والشك والألم النابع من التجربة، كل تجربة حياتها وهي تذبل بعد قرن من الزمن، أفكارها الشاردة والواردة لم تجعلها تتعرف على ملامح عابد أو صوته.

كل ما تتذكره أنه بعد توقف الزمن، وقفت السيارة في نفس المكان الذي انطلقت بهم منه، تصافحا ثم مد يده إلى تثليم والتي ترددت ثم أودعت يدها في يده. قدم لنجوى علبة مزخرفة وورقات وكان هناك اتفاق، قدمت هي أيضاً له علبة مزخرفة وورقات. وصافحها مرة أخرى قبل الوداع، وضغط على يدها بشدة وهو يبتسم. ثم غادرا المكان.

اتجهتا إلى السيارة. وهما في طريق العودة أسرت تثليم على خجل عن رغبتها في شراء علبة سجائر. ضحكت نجوى بهستيرية وقد فتحت حقيبتها وألقت العلبة المزخرفة والورقات بداخلها وأخرجت علبة سجائر ثم أعادت تعبئتها في علبة خاصة من النوع الفاخر، أخرجت سيجارة وهمت بإشعالها ولكن تثليم والتي جعلتها معلوماتها الأولية عن هذه المنطقة أكثر تحفظاً من أهلها، حذرتها من عواقب مثل هذا الأمر وهم في الطرق العامة. ابتسمت نجوى وأشارت بيدها إلى الزجاج لتؤكد لها أن من في الخارج لا يدركون حقيقة ما يجري في الداخل.

فكرت تثليم (تبدو هذه الحالة العامة لنا!).

بعد أن وثقت بالأمر أشعلت هي سيجارتين بنفسها، وعندما اقتربا من منزل نجوى كانت السيجارتان قد تآكلتا نهائياً. أخرجت الأخيرة علبة عطر من صندق خلف كرسي السائق وعطرت السيارة وملابسها. وحين غمزت تثليم إلى رفيقتها بعينها باتجاه السائق نفضت رأسها موضحة أن الأمر عادي جداً، قالت:

«هو سائق غلبان في النهاية، ويبحث عن لقمة عيش يرسلها لأهله، ولن يمانع أن يكافأ صمته بسخاء».

بعد لحظات كانتا قد استقرتا داخل غرفة نجوى. الغرفة مرتبة بعناية واضحة وكان حجم الغرفة يبدو أقل مما تحوية من قطع أثاث وأجهزة. استأذنت لدقائق وتركت ضيفتها لوحدها في الغرفة. راقبت محتوياتها بدقة. وبعد قليل أعادت صور الأحداث والتجربة التي مرت بها قبل قليل لأول مرة وتذكرت تفاصيل صغيرة. لون الحقيبة اليدوية التي كانت تحملها نجوى والتي كانت تشكل الدليل الذي يمكن من خلاله أن يصل عابد إليها. وتلك الورقة النقدية للسائق حتى يظل الأمر طي الكتمان وجزاء حفظ الأسرار، تفاصيل تكمن فيها أسرار الحياة في مجتمع له خصوصيته.

أصابتها نشوة لم تتأكد منها وهي تتذكر ضغط عابد على يديها بسرعة قبل أن تدرك نجوى ذلك. لم تمنحها صاحبتها وقتاً كافياً للاستمرار والتلذذ بهذه النشوة. فقد حضرت ووضعت كأسين من العصير الطازج أمامها ودعتها لمشاركتها. ثم اتجهت إلى حقيبتها اليدوية وفتحت العلبة المزخرفة ووجدت فيها عطراً من النوع الفاخر. وكمجاملة منها عطرت

رفيقتها أكثر من مرة. ثم سحبت الورقات وبعد أن تأكدت مما فيها بدأت تقرأ بصوت مسموع:

«أعترف أنك عاصفة لا تهدأ، وبركان هائج تتطاير منه شظايا النار.

رياحك عصفت بي شمال الحرية، وجنوب الخريف..

وتساقطت أوراق قلبي واصفر وجهي..

وشظاياكِ وصلت إلى قلبي.

فكان الهوى وكنت أنت.

أتذكرك حين غياب الشمس وحين ظلمة الليل،

أتذكرك في فواصل الأوقات والأزمنة.

في اليوم ساعات كلها (ألف)، وفي الساعات دقائق كلها (الحاء) وفي الدقائق ثوانٍ كلها (الباء) وفي الثواني أجزاء كلها (الكاف).

تجتمع وتختلط لتكون يوماً كاملاً بأزمنته الدقيقة لتتمازج فيه حروف (حبك) في كل أجزاء الأزمنة والأوقات... أحبك..

غطاؤك الأسود خارج الزمن وخارج المكان،

شيء آخر لا ندركه يتوقف بيني وبينك، بيني وبين ملامحك وجمالك.

هل تُحجبُ الشمس..؟

أكملي هذه الترنيمة الرائعة لأجلي واسمحي لهذا البرقع أو النقاب أو هذا القماش الأسود،

اسمحي له ولو للحظة أن يرحل.. أن يحررك،

لأرى صورتك واحتضنها ثلاث مرات قبل النوم،

وثلاثاً بعده، وثلاثاً طوال اليوم.

يا أغنيتي، مواويل فرحي..

شمسي التى أتوق إلى طلوعها..

محبك عابد

اندهشت تثليم بسبب جرأة عابد وطلبه على هذا النحو، وقبل أن تتساءل، لاحظت مسحة حزن تغطي وجه رفيقتها وحبات عرق على جبينها.

احتارت في الأمر وإن كان يحق لها السؤال والاستفهام أم لا.

وجاءها صوت نجوى بعد أن أشعلت سيجارة وسط دهشةٍ منها.

ـ وكيف تجدين هذه الرسالة؟

ـ أسلوب رائع وتقديم مغرٍ لطلب عادي، ما المانع.

ـ أدرك ذلك ولكن كيف يمكن لي تحقيق هذه الرغبة.

قالت تثليم وهي تبتسم.

ـ المهارات الفائقة التي شاهدتها اليوم قادرة على تحقيق ما تريد ولا أعتقد بأنك تعجزين عن إيجاد الشجاعة والفرصة لذلك.

ـ أرجوك حاولي فهمي. ليس القصد المكان أو الزمان أو الكيفية، ولكن قصدي، هل يمكن أن أسمح له بذلك وأعطيه الفرصة ليرى وجهي بكل ملامحه؟

ـ لا تكوني غبية، وماذا في ذلك خصوصاً وأن ما بينكما شيء رائع؟

ـ للمرة الثانية، لم تَصِلِي إلى ما أعنيه بالضبط.

ـ كوني أكثر وضوحاً وصراحة.

ـ ألا تعتقدين بأنه سيبتعد عني بعد أن يرى أنفي الصغير المجعد الذي يشوه وجهي، أو تخبو مشاعره تجاهي.

ـ فهمت، أنت تبالغين، وهو يحبك وستكوني جميلة في عينيه دائماً، وأنت جميلة يا عزيزتي.

ـ أبداً على العكس، هو يقول لى ذلك باستمرار إننى سأكون الأجمل في عيونه دائماً، لكن المشكلة هنا، في أنه يتخيلني كأجمل ما يمكن أن تكون الفتاة.

ـ لكن مهما يكن، فلا بد أن يأتي اليوم الذي يرى ملامح وجهك كاملة.

ـ ليته شافني من البادية، الآن لا أستطيع.

ـ يجب أن تفعلي لتجاوز هذه العقدة، وتواجهي مخاوفك والواقع.

بعد صمت قصير، دق هاتفها وكان عابد على الخط الآخر. وبعد حديث قصير حول الرسائل المتبادلة، سأل بتأكيد وثقة عن الموعد الذي سيتحقق فيه ما أراد. فلم تعطِ وعداً قاطعاً بذلك. واكتفت بالتأكيد له على أن حبهما حب وجداني من القلب إلى القلب.

فهمت تثليم المراوغات التي تمارسها نجوى، وبشجاعة غير متوقعة منها خطفت الهاتف وحيَّت عابد وأخبرته أن طلبه سيتحقق هذا الأسبوع، وأنها ستتولى الأمر.

صممت نجوى وأبدت استياءها. إلا أن تثليم لم تأبه بالأمر. وعادت تؤكد أكثر من مرة على الموعد، مرة بالإقناع ومرة بالهجوم، واتهامها بعدم الثقة والقدرة على مواجهتها الواقع، وأخيراً رضخت نجوى لهذه التأكيدات. مطالبةً تثليم بالحضور معها. إلا أن الأخيرة أقنعتها بعدم جدوى ذلك، وعدم قدرتها على الغياب عن المنزل مرة أخرى، لأن هذا يعني بالنسبة لها رفع حالة الطوارئ إلى الخطر الكامل، وصفارات الإنذار إلى أقصى مداها، ويعني حرباً أهلية لا أحد يعرف متى تتوقف. عجلت تثليم حركتها فالوقت المسموح به بشكل استثنائي اليوم قد نفد، وما هي إلا دقائق حتى استقرت في الكرسي الخلفي وبدأت السيارة تحرث الطريق عائدة بها إلى منزلها.

في صالة الجلوس قبل أن تتجه إلى غرفتها، مازحت الصغار بفرح ظاهر، وقبل أن تدير مفتاح غرفتها كانت أروى تقف إلى جانبها معبرة عن رغبتها في الحديث إليها، ووافقتها على هذه الرغبة. جلستا تتحدثان في أشياء عدة. ولم تنسَ أروى أن تخبر أختها أن ياسر جاء ولم يجدها وخرج غاضباً. واتصل أكثر من مرة. وبعد أن خرجت أروى لم تكلف تثليم نفسها بالاتصال بياسر، وعندما سمعت رنين الهاتف تأكدت أنه هو. كان غاضباً على ما يبدو، وعندما سألته عن السبب، أوضح أنه يفضل أن يحصل على معلومات تحركاتها. سخرت من طلبه. تضخم غضبه بصورة كبيرة ولم تبالي، ثم استأذنها وبعنف أغلق السماعة، وهي متبلدة باردة على عكس حرارته وحرارة الموقف.

جلست على سريرها وهي تسترجع ما حدث اليوم. لم يستوقفها سوى تلك الضغطات القصيرة على يدها من عابد، وصوته الأجش حين التقطت سماعة الهاتف من نجوى. أحست بصداع يضغط على جانبي رأسها وتشويش قوي في فكرها، فاسترخت على السرير، وهكذا من دون أن تشعر سقطت دمعات من عينيها، فانتفضت في مكانها ومدت يدها إلى أسفل وسادتها وأخرجت المفكرة السوداء فقبلتها ثم قلبت صفحاتها.

قرأت أول سطور كتبتها وتوقفت عند كلمة (ماما). عادت سنوات إلى سطور كتبتها عندما جاءها ذلك الخبر الصاعقة.

رحلت . .

إلى من ألجأ؟

وفي حضنك أحتاج إلى أن أدفأ. إلى من ألجأ؟

كيف أبدأ هذه السطور؟ كيف ينزلق القلم من بين أناملي ليكرر هذه العبارة التي تغتالني،

مرة بعد مرة . . إلى من ألجأ؟

هل ألوم عثرات خطواتي؟ أو ذكرى بسمة شفتيك؟ أم قلبلك الساكن في أعماقي؟

أم حروفك؟ أم دربك؟

سؤالي أصبح يغتالني، يجتث قلبي، ويخنقني . . إلى من ألجأ؟

قريبي . . كل القريبين منى بعيدون الآن، لا يعرفون أي قيثارة للحزن تعزفني . .

والحديث . . الحديث لغيرك مستحيل، لا لغة ولدت لغيرك . .

أعلنوا الفرح، لكن في كل مرة يتطاير من عيونهم عنوان الرحيل، فرح غادر وحزين.

يالله . . يالله . .

لماذا رحلتي قبل أن أرتب أوراقي؟ أكتشف حروفي .

أو لترسمي البعض من شكل ولوحة حياتي . .

ماما، عاهدت الله وعاهدتك على الرجوع لأرضك حيث الحياة لطيفك ستكون تعليلة السماء . .

أدرك عجزي وضعفي، وكل من حولي يفترسني،

يغرس أنيابه في جسمي وفؤادي وظلي .

سأعود إليك عبر أوراقي وحروفي .

سأقف في طريق طيفك، أحدثك وأردد اسمك .

ماما، هم أعلنوا رحيلك، وأنا لا أدري إن كان ذلك حق لهم . .

لكني عاجزة ضعيفة أمام كل من حولي .

لا وجود لي . . لا الواقع يستوعبني، ولا الهامش يطيقني . .

خاطبت من أخذ الوصايا عليّ، وجدت عينيه تهربان إلى جحيم نسائه، فتزداد حيرتي وقلقي .

هل أصدق حقيقة الأمر، وأدع الضياع ينمو في أحداقهم وأحداقي، أمس أغتالها؟

ولكن هل للعاجز من حيلة فاحتالها؟

بالله عليك، أريد فقط حروف اسمك .

تعالي إليّ أو ارسلي طيفك ليخبرني عن رحيلك عن الوهم والحقيقة.
دعيني أقبلك وأحتضنك، دعيني أشم رائحتك عبر أوراقي.
قبلي حاجياتي لتصلني قبلاتك.
سأتذكرك يا أمي مع الطيف،
مع العصافير الطاهرة التي لم تعرف قسوة هؤلاء ولا ملامحهم الجافة.
كم أحسدها لأنها تغرد وتحتضن الحياة رغم عطشها،
بل تغريدها يسمو أكثر وهي عطشى،
وقد تصل اليك..
وأنا أحتضن طيفك. فإليه سألجأ قبل أن تخذلني الحياة..
ويغتالني السؤال.. مرة.. بعد مرة.. بعد مرة
لغيرك لمن ألجأ..؟

تشليم

أطبقت مفكرتها وهي تنتحب ويصدر عنها أصوات تشبه الحمائم في قفصها. دموعها تتسابق للوصول إلى خديها. واللون الأحمر يتنافس مع الوقت ليحقق رقماً قياسياً في قدرتها على تغطية بياض عينيها الواسعتين.

عندما جاءت الطرقات القاسية على الباب في اليوم التالي لم تكن تدري كيف نامت فعلاً، تتذكر أنها راجعت ذكريات عديدة قبل أن تفقد وعيها.

ذكريات كلها مرارة وحزن. تتذكر صورة أمها عندما أصيبت بالحمى وهي لا تزال في السابعة من عمرها واقفة إلى جانبها تبكي بلا توقف، من دون أن تدرك ما تعمله، وكيف يمكن أن تخلص أمها من ذلك الأنين المتواصل، لا أحد حينها كان بالقرب منها يساعدها ويرشدها؟ وتذكرت تلك الأسئلة التي كررتها الليلة الماضية قبل أن يأخذها القدر خارج الوعي.

(هل ماتت فعلاً؟ وكيف أعرف أنها ماتت؟ وهل سأراها؟

هم قالوا إنها ماتت، ولكن هل هم صادقون؟

لكن، لماذا ذلك الفرح في عيونهم؟ أبي، لماذا لم ينقل الخبر بنفسه ويواسيني؟

ما أصعب أن تكون حائراً بين الموت والحياة؟ ما أصعب أن تكون عاجزاً عن المصير النهائي لأقرب روح إليك.

عادت الطرقات القاسية والشتائم اللاذعة مرة أخرى كبركان متفجر يقذفها بأحجار نارية متكورة من دون رحمة، وهي تشعر ببقايا ذلك

الصداع اللعين عندما قامت متثاقلة لتفتح الباب من أجل أن تتوقف الطرقات والألفاظ النابية.

وصلت بصعوبة إلى الباب، فالتقت وجهاً لوجه مع زوجة أبيها الأولى. تراجعت الأخيرة خطوتين إلى الخلف مذعورة بعدما رأت بقايا اللون الأحمر في عينيها، وشفتيها يكسوهما البياض، واكتفت بالقول: (يبدو أنك مريضة!).

ثم أدارت إليها ظهرها مغادرة المكان، فأقفلت تثليم الباب، عادت إلى سريرها لتدخل في إغماءة جديدة احتلت الكوابيس المزعجة النصيب الأكبر منها.

طرقات خفيفة وهادئة على باب غرفتها جعلتها تتقلب على سريرها قبل أن تتأكد من حقيقتها.

وبتثاقل فتحت الباب بعد أن قطعت المسافة بين سريرها والباب في عشرة أضعاف الوقت الذي تقطعه عادة.

كانت أروى. أصابها ذعر وهلع شديدان عندما رأتها على هذه الحالة، أسندتها على كتفها وعادت بها إلى سريرها، عبرت تثليم بعجز بالغ عن رغبتها في كوب ماء.

اتجهت إلى المطبخ، وأثناء مرورها في صالة الجلوس لاحظ ياسر الذي حضر لتوه، الذعر والهلع على وجه أروى، وتأكد من ذلك بعدما أحضرت كوباً من الماء وهي تسير بخطوات متسارعة ومرتبكة إلى غرفة تثليم.

غابت أروى، ومن دون أن يشعر وسط دهشة من الجميع، رفع صوته صارخاً ينادي على أروى. حضرت بسرعة، وعندما سألها لم تستطع الإجابة.

جذبت ذراعه بشجاعة متناهية وقادته إلى غرفة أختها، وعندما رآها في تلك الحال سقط في يديه، واحتقن وجهه وتساقطت حبيبات عرق على جبينه، شعر باختناق، وحرارة تلهب رأسه التائه.

قرر نقلها بسيارته إلى المستشفى، إلا أن النظرات الباردة والصمت من حولها جعله يفقد أي قوة للمواجهة، كان عاجزاً بحكم الأعراف أن يكون منقذاً لخطيبته، حيث لا يوجد رجل ـ محرم ـ يتخذ القرار ويعطي الموافقة. في حالة المرأة، في هذه الجزيرة، لا يوجد ظرف طارئ أو استثنائي، دار بنظراته بين الجميع، من دون أن يجد أي دعم، طلب من أروى أن تعتني بها، وخرج حائراً مشتتاً.

وبعد وقت لا أحد يدري إن كان طويلاً أو قصيراً، عاد ياسر يصحب معه رجلاً عرف من ملابسه وحقيبة يحملها أنه طبيب. تمت مناقشات مطولة مع زوجتي الأب إن كان يجوز للرجل ـ الطبيب ـ الدخول في غياب الزوج والأخوة، إن كان يجوز لرجل ـ طبيب ـ أن يكشف على المرأة في حالة طارئة واستثنائية مثل هذه!

كاد ياسر أن يثور، لكنه بهدوء نظر إلى أروى وجذب الطبيب من يده واتجه صوب غرفة تثليم، أجرى كشفاً طبياً عاجلاً، ثم أعلن الدكتور أنها بحاجة إلى عناية أكثر تركيزاً، مما يتطلب نقلها على الفور إلى المستشفى قبل أن تصل إلى حالة حرجة.

وفوراً غادر الغرفة بعد أن طلب من أروى أن تتولى تحضيرها، سريعاً نادت أروى على الخادمة ميمونة والتي شاركت في حملها إلى السيارة، كان المشهد مربكاً وصامتاً، النساء لا تعرفن تحديداً ماذا يجب أن تفعلن. هل يمنعه من أخذها إلى الطوارئ أم يذهبن معه، كانوا عاجزات عن اتخاذ قرار، فلم يعتدن موقفاً مشابهاً، لقد اعتدن أن يتلقوا الأوامر من دون تفكير، وتعلمن مبكراً أن العادات والتقاليد أهم من حياة إنسان، هكذا كانت تصوراتهن البسيطة تحضهن على التصرف، لكن حركة ياسر كانت أسرع منهن، أسرع من تفكيرهن.

بعد أقل من نصف الساعة كانت تثليم تستقر في قسم الإسعاف، وإلى جانبها ياسر وأروى وميمونة الخادمة. استمر الكشف والفحص أكثر من ساعتين متواصلتين من دون أن تدري تثليم ما يدور حولها. كانت ترى أشباحاً تتحرك، وتشعر بأيدٍ تقبلها وتقرصها من أطرافها. وبعد أن تمت الفحوصات الأولية، قدّم التقرير إلى الطبيب المعالج.

رأى الطبيب أن المريضة بحاجة إلى فترة لا تقل عن عشرة أيام في العناية المركزة بالمستشفى. بقيت ميمونة إلى جانبها وغادر ياسر المستشفى لإحضار بعض الاحتياجات المهمة لتثليم في صباح الغد بعد أن تأكد أنها دخلت نوبة لن تفيق منها إلا بعد ساعات.

في الصباح التالي وحينما كان ياسر في بيت تثليم، وباتفاق مسبق مع أروى تليفونياً لتحضير بعض الملابس والاحتياجات لأختها، سمع أصوات احتجاج على غياب الخادمة، هذا الغياب الذي كان سبباً

لفوضى عمت المنزل. ثم أسئلة احتجاج عن موقفه المخالف للعادات والتقاليد:

«علاقتك بتثليم ليست سوى «خطبة» شفهية، ولم تصبح محرماً لها»، هكذا صاحت احدى الزوجات.

وقالت الأخرى: «لو كان أبوها حاضراً لما تجرأت أن تدخل البيت، كيف تحملها في سيارتك من دون وجود محرم معها؟ لكن الوعد بكره!».

«كانت تموت، هل ندعها تموت؟»، رد بحنق. لم يجبه أحد، إلا أن نظرات الإنكار ظلت معلقة به.

شعر بالاشمئزاز، جاءت أروى ومعها حقيبة متوسطة الحجم قدمتها لياسر، شكرها، واتجه مسرعاً إلى المستشفى.

ترددت في ذاكرته تلك الاحتجاجات التي سمعها فسقطت منه دمعة حسرة أو حيرة.

دخل الغرفة التي تقبع فيها تثليم ووجدها بين اليقظة والنوم.

أخذت الخادمة الحقيبة من يده، ووضعت ما فيها في خزانة خشبية إلى جوار السرير.

اقترب منها وهي لا تشعر به. أخذ يدها بين يديه واحتضنها ثم رفعها إلى شفتيها وقبلها.

شعرت تثليم بوخز القبلات فألقت برأسها في الاتجاه الذي يقف فيه.

نظرت إليه، طلبت كوب ماء، حاولت أن ترفع الجزء الأعلى من جسمها، أن تعدل جسدها إلى وضعية تشبه الجلوس، فلم تستطع.

حاول مساعدتها من دون فائدة. تفقدت المكان في دهشة واستغراب. كمن استيقظ من حلم ثقيل، وسألت:

ـ أين أنا؟ ولماذا أنا هنا؟

حاول تطمينها ولكنها ألحت عليه، فأخبرها بتفاصيل ما حدث.

حاولت أن تتذكر ما يقول، لكن صداعاً قوياً منعها. أرخت جسمها وفجاة ارتجفت بقوة.

صرخت (المفكرة السوداء، المفكرة السوداء). لم يفهم ما تعنيه. رددت:

ـ أرجوك المفكرة تحت وسادتي لا بد من إحضارها.

لم يستوعب جيداً، كررت عليه. أكد لها أنه سيفعل ذلك.

لمحت هي ميمونة تقف على استحياء تتأملها، نادتها ومدت يدها إليها، انحنت الخادمة وقبلتها على جبينها. دمع ياسر بغزارة وهو يتذكر بألم حالة الإشمئزاز التي مر بها.

قال لتثليم:

ـ الآن لست بحاجة إلى ميمونة، سآخذها إلى البيت.

فهمت الحزن الذي في عينيه وقالت:

ـ هم بحاجة لها هكذا يقولون، إنني متأكدة من ذلك، أصبحت الآن أدرك أشياء كثيرة.

دمعت عيناها وأكدت عليه ألا ينسى المفكرة السوداء، وقبل يدها وغادر.

نظرت إلى يدها وإلى موقع شفتيها وقبلته واحتضنت يدها، وأخذتها إغماءة لذيذة.

طوال إقامتها في المستشفى وحتى بعد أن تحسنت حالتها لم يزرها سوى أم ياسر وأروى. كانتا بجانبها طوال الوقت. تساءلت عن سبب عدم حضور نجوى، لكنها لم تجد سبباً مقنعاً، فتجاهلت الأمر.

باقت ورد غامضة وجدتها موقعة من دون اسم، لم تلقي لها بالاً واعتقدت أنها من إدارة المستشفى.

ياسر لم يتركها يوماً واحداً. وقد فهمت من أمه في إحدى زياراتها لها انه أخذ في الأيام الأولى لمرضها إجازة ليتفرغ للعناية بها. وجدت نفسها ممتنة لهذا الحب كما لم تكن من قبل.

جاءتها فاتورة العلاج إلى غرفتها، وجدت الرقم الذي يحويها رقماً كبيراً لا تفهمه، بل لا تفهم لماذا. لم يكن أمامها سوى الاتصال بوالدها لكن من دون جدوى، اتصلت بزوجة أبيها الأولى، ووعدتها أن كل شيء سينتهي في الغد من دون أن تكلف نفسها عناء السؤال عن حالتها.

في اليوم التالي كان ياسر يقف إلى جوارها ويقوم بنفسه بإعداد حقيبتها. صحبها إلى خارج المستشفى، وفي السيارة سألته عن الفاتورة وإن كان والدها قد حضر لتسديدها، فأخبرها بحضوره، لكنها وجدت شيئاً غامضاً يطل من عينيه. سألته مرة أخرى، لم يجبها. أصرت أكثر من مرة.

قال لها:

ـ أنا خطيبك، وسواء توليت سداد القيمة أو تولاه أبوك فلا فرق.

فهمت وصمتت، وبعد وقت قالت:

ـ كانت متوقعة أن مثل هذا سيحدث، هذا ما يهمه، من يدفع؟ كم يدفع؟ وعمن يدفع؟ ولمن يدفع؟ يبدو أن المادة والأعداد الكبيرة لمن يقذفهم لهذا العالم طغت على الإحساس بالأبوة، أو أن هذا الإحساس قُسم بطريقة غير عادلة.

شعرت برغبة في البكاء، سحب يدها قبل أن تصل إلى المنزل، قبلها. ومدت يدها وسحبت يده واحتضنتها.

نزلا من السيارة وأوصلها إلى غرفتها. لم يكن في استقبالها سوى الخادمة وثلاثة من أخوتها الصغار من زوجة أبيها الأخيرة.

الكسب الذي حققته من مرضها كان اختفاء تلك الطرقات القاسية والمصحوبة بالشتائم الرعدية وحرية حركة أوسع مع خطيبها.

أمر واحد ظل يقلقها، الغياب المفاجئ من نجوى. لكنها رأت أنها غير محتاجة لخسارة إضافية. اتصلت بياسر وأخبرته عن رغبتها في زيارة نجوى. لبى لها هذه الرغبة. وفي المساء كانت السيارة تنطلق بها إلى دار نجوى. تركها هناك وهو يتبعها بنظراته.

دلفت إلى الداخل، وبعد انتظار ليس بالقصير قادتها الخادمة إلى غرفة نجوى. أصابها الذعر وهي تقلب أوراقاً بين يديها جالسة على الأرض في

تلك المساحة الصغيرة الفارغة في الغرفة. اقتربت منها وهي لا تكاد تشعر بوجودها.

أتت بحركانت لمجرد أن تشعرها بحضورها من دون فائدة. جلست على ركبتيها، أصبحت في مقابل وجهها، رفعت نجوى وجهها وهي تنظر إليها بعينيها اللتين لا تتوقفان عن صب الدموع.

ونظرات غريبة لم تدرك تثليم معناها. زادت دقات قلبها، ارتجفت وكادت أن تسقط.

ساد المكان صمت لدقائق.

حاولت تثليم أن تستحث نجوى على الحديث بالعتاب ثم بالتودد من دون فائدة. ومن دون مقدمات صرخت نجوى فيها:

ـ أنت السبب في كل ما حدث. لقد تخلى عني. ماذا عملت لك؟ لماذا تقضين عليّ؟ أنت السبب، تخلى عني. وعادت لبكاء متواصل.

لم تدرك للوهلة الأولى ما تعنيه.

أعادت شريط ذكرياتها قبل دخولها المستشفى لتتوقف عند اللحظة التي التقطت فيها سماعة الهاتف من يدها لتحدد موعد اللقاء بعابد، وأدركت التفاصيل الباقية، هل كشف الوجه هو السبب الكارثة؟ هل مشاهدتها كما هي سبب النهاية؟

حاولت تهدئتها لوقت طويل كمرحلة أولى، ثم اتجهت إلى الحديث معها حول أن هذا أمر سيحدث بما أن إيمانه أن تكون المرأة كاملة وبملامح متقنة ومفصلة على مزاجه. اكدت لها أن حدوث ذلك الآن، وفي هذه المرحلة أفضل من أي فترة لاحقة.

إلا أن ذلك لم يكن ليجعلها تتوقف عن البكاء والاحتراق، ولكنها كسبت نجوى بصعوبة وجهد خارقين ملغية الموقف السلبي الذي اتخذته تجاهها.

في وقت لاحق، عرفت تثليم أن أروى امتنعت عن زيارتها في المستشفى بعد أن زارت نجوى وفهمت أن لها علاقة بما حدث. اتجهت إلى أروى وأفهمتها كل ما جرى، حاولت تثليم وأروى بعد الاتفاق الجديد إيجاد صيغة تُخرج نجوى من محنتها. وأصرت أروى أن المخرج الوحيد يكمن في إعادة عابد إليها وانسحابه تدريجياً، وأنها حاولت بنفسها إقناعها بذلك وفشلت.

وأشارت إلى تثليم أن تكرر المحاولة وأعطتها رقم تليفونه. إحساس داخلي جعل الأخيرة تستسيغ هذه الفكرة وترحب بها. عزت هذا الإحساس إلى رغبتها في مساعدة صديقتها وإقناع عابد بالعودة وترك نجوى تدريجياً لمنع الصدمة. حدثت نفسها.

بادرت على الفور للاتجاه إلى الهاتف وما إن صلت إليه حتى سبقها الهاتف بالرنين، رفعت السماعة فكان ياسر على الطرف الآخر. دار بينهما حوار عادي. تملكتها رغبة خفيفة لإنهاء المكالمة في أسرع وقت بخلاف ياسر الذي حاول إطالتها.

أمام هذا التضاد كانت المكالمة باردة وفاترة وهو ما جعل ياسر يشعر بحنق لم يستطع إعلانه.

لكنه عزا ذلك إلى مرضها وحالتها النفسية.

بعد المكالمة مباشرة، طلبت عابداً، جاءها صوته من الطرف الآخر،

شعرت بارتعاشة وتذكرت تلك اللمسة على أطرافها. لم تعرف صوته مباشرة ولا هو، بعد أن أعلنت اسمها حياها بحرارة وسألها عن المستشفى وأشياء أخرى ليست مهمة. وسألها إن كان الورد وصل إليها. دهشت وتذكرت تلك الباقة المجهولة. تساءلت:

ـ كيف عرفت أني بالمستشفى وعرفت رقم الغرفة؟

تجاهل سؤالها، لم تدرِ كيف تتحدث إليه. لكن ذكاءه لم يدع لها فرصة لتتولى إدارة الحديث، فأجاد في إدارة الحوار وتطرق إلى مواضيع عديدة. وتكرر الاتصال أكثر من مرة، وعلى ذات المنوال من دون أن تفاتحه في الموضوع الذي اتصلت لأجله أساساً.

أروى سألتها أكثر من مرة فكانت تتهرب وتخفي أنها حدثته، وتعتذر بسبب اتصالات ياسر وغيرته.

في إحدى المرات وبعد أن أنهت مكالمة استمرت أكثر من نصف ساعة، رن جرس الهاتف، أهملته.

وعندما واصل رنينه رفعت السماعة. جاء صوت ياسر حاداً هذه المرة وهي تتحدث ببرود. سألها عن انشغال الخط خلال الأيام الأخيرة. لم تجبه، واكتفت باعتذار بارد، وأن المنزل فيه أكثر من شخص وليست وحدها.

احترق مع ذلك البرود الذي تأتي به إجاباتها على غير العادة. كاد أن ينفجر فيها لكنه تمالك نفسه وأنهى المكالمة برجاء وتوسل وخضوع أن تحاول ألا تشغل الهاتف خلال الفترة التي اعتادا أن يتحدثا فيها. عبر عن رغبته في اهدائها هاتفاً جوالاً، لكنها اعتذرت لأن الهاتف الجوال محرم

على النساء في هذا البيت، لكنها وعدته بكل برودة أن ترد على مكالمته أول بأول، وانسحبت.

كانت نجوى تتوسط أروى وتثليم وهي لا تزال على حالتها تلك الحزينة وهي تحتضن هذه المرة الهاتف. رفعت السماعة وطلبت عابداً، جاءها صوته من الطرف الآخر. انفجرت باكية. أغلق السماعة بكل قسوة. أعادت الاتصال مرة أخرى. توسلت إليه ألا يغلق الخط في وجهها وهي تبكي، وعدها بذلك بشرط أن تتوقف عن البكاء.

حاولت فخرج منها صوت بين البكاء والضحك.

طلب أن تتوقف عن البكاء وأن تقول ما تريد.

كانت ملامح وجهها حزينة باكية مترهلة، وانطلقت منها ضحكة هستيرية.

لم يتملك نفسه، قال:

ـ أرجوكِ، أريحي نفسك وأريحيني، أرجوكِ.

دخلت في بكاء حاد. جذبت أروى السماعة وأعطتها إلى تثليم. احتارت تثليم، انقلب لون بشرتها من البياض الناصع إلى الأحمر المحتقن. أخذت السماعة، لم يكن هناك خيار آخر، قالت:

ـ لا، أرجوك يا عابد، إنها تحبك. هل تدرك معنى هذه الكلمة، إنها تحبك.

ـ ولكنها خدعة البرقع والخيال، اللعنة على البرقع.

حاولت أن تضيف، كررت المحاولة بمجهود أقل وقالت:

ـ أرجوك

جاء صوته من الطرف الآخر:

ـ أنتظر اتصالاً منك الليلة. هناك شيء مهم أرغب في أن أقوله لك.

أعادت السماعة إلى مكانها وانضمت إلى محاولات أروى للتخفيف عن نجوى من دون فائدة.

عندما عادتا إلى البيت جلستا معاً، وأخذت أروى تروي التفاصيل الدقيقة عن علاقتها ومغامراتها المختلفة، وتثليم تسمع بنهم حقيقي ورغبة صادقة لمعرفة المزيد، وتتأمل هذه العالم العجيب وهذه المحظورات التي تمارس وسط بيئة سطحها المحافظة، ويتملكها شعور جارف وغريب أيضاً في دخول هذه التجربة وهذا العالم. تملكتها قناعة بأن مثل هذا العالم هو القادر على اغتيال واجتثاث عزلتها، على الشعور بكيانها، البعض المفقود من أنوثتها.

على رنين جرس الهاتف دخلت تثليم غرفتها، كان ياسر. كانت تشعر بعدم الرغبة في الحديث إليه وبتحريض من مغامرات وعلاقات أروى وصداقتها. ولكنها تذكرت الأرقام في أسفل فاتورة المستشفى، وتذكرت الخدمات التي يقدمها من أجلها، والحب أو العطف الذي شعرت به، فتحاملت على نفسها.

بعد نهاية المكالمة تساءلت مع نفسها عن السبب في مقابلتها اندفاعه وحبه لها، وتفانيه في خدمتها وبهذا البرود والبلادة، هل هو جرح الأنوثة؟ هل هي عقدها؟ هل كان ياسر مجرد خيار متاح للخروج من

تلك العزلة؟ عندما لم تجد جواباً مقنعاً تجاهلت الموضوع بأكمله.

سبحت في أفكار مشتتة وخيوط ذكريات غير متناسقة، وأصابها ملل لا تدري مصدره. قلبت مجلات وجرائد قديمة من دون فائدة. شعرت بالاختناق.

تذكرت الشيء المهم الذي يرغب أن يقوله عابد لها. أصابتها لذة طارئة.

اتجهت نحو الهاتف وطلبته. تبادلا التحية في البداية، وكعادته امتلك زمام الحوار وأتقن إدارته بطريقة فاتنة توحي بضعفها: «هل نحب نحن النساء الشعور بالضعف؟».

سألت نفسها ثم تجاهلت استفهامها، وهي تستمع إلى ضحكاته التي ترن في أذنها، والتي تخبرها عن إعجابه بها بشكل غير مباشر.

وقبل أن تشارف المكالمة على النهاية، أخبرها أن هناك رسالة مهمة يجب إرسالها إليها.

لم تدرك الطريقة التي يمكنها بها استلام الرسالة. عنّت لها فكرة استغلال ياسر، لكنها طردت الفكرة سريعاً، ثم تذكرت أنها ستذهب غداً إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات الروتينية. واتفقا على اللقاء في العيادة واستلام الرسالة.

بعد أن أغلقت السماعة أصابتها حالة من الدهشة من القرار الذي اتخذته، كيف يمكن أن تنفذه؟ وكيف استطاعت الموافقة بهذه السهولة؟ وهي في دهشتها تذكرت موعد المستشفى. اتصلت بياسر وجاء صوته

على أوتار من الفرح، أخبرته عن موعد الغد فأكد لها أنه لم ينسَ.

ـ أي حقارة تلك التي اكتسبت؟

جاءها هذا الصوت من داخلها ولكنها تجاهلته. في الموعد المحدد كانت بالقرب من عيادة الطبيب داخل المستشفى، وكان ياسر ينتظر في الخارج.

وعلى مقاعد الانتظار رأت رجلاً قادماً باتجاهها. ضاقت المسافة بينه وبينها وعرفت أنه عابد. صافحته وضغط على يدها ضغطة قوية، ثم رفع يده إلى شاربه كأنه يتأكد أنه ما زال مكانه ومضى.

ظلت تراقبه حتى اختفى. ثم قادتها قدماها إلى الخارج، ودلفت إلى السيارة من دون أن تنتظر دورها عند الطبيب. سألها ياسر بود، وأجابت ببلاهة بأن كل شيء بخير.

عندما استقرت في غرفتها لم تجد تفسيراً لكل ما حدث. حقارتها، والرسالة التي أهملها عابد، والحديث الذي تبادلته مع ياسر.

أسئلة بلا استفهام . .

وهل تملك حق عتاب القدر الجميل إذا تأخر . . .

أو هل تملك حق مساومة الوقت ونكران مساره وإيقاعه . .

هل يمكننا مصارعة أمواج الحياة بشيء آخر غير انتظار النهايات ومراقبتها . .

هل يمكن لمثلي أن يواصل العد والإحصاء لخطوط اليد ورسم القدر . .

هل القدر يحسم الاتجاهات . . أم الخوف يشتتها . .

هل التردد صيغة أمر أو إنكار أو دعوة مبطنة لتلاشي الأشياء في جوف الزمن . .

تصحيح المسار خدعة للعودة . . أم هي عودة الخدعة . . .

هل الأسئلة تستطيع أن تناطح المصير . .

وهل المصير سوى خيارات حاسمة . . للإنسان . . وللعقل والعاطفة . .

وهل التجديف ضد أو مع أو خلف التيار محرم أم جريمة . .

هل نحن نعبر عن ذاتنا . . أم عقدنا هي التي تفضحنا . .

هل هي مغامرة الحياة . . . أم المقامرة بها . .

إنذار . . ومفارقات . .

شعرت برغبة للهروب من كل شيء، حتى من غرفتها، حتى لا تقلقها الأسئلة المستفزة لواقعها، والمتراقصة أمام عينيها وفق إيقاع نشاز يجرح إحساسها باستقرارها وإنسانيتها، أسئلة تحطم المتبقي من عذاباتها وتحولها لهيكل يقفز بين أوجاعها، ورماد عقدها، وشعور يغتال الجزء الأخير من لعناتها، غثيان يفوق الوصف ويلقي باللائمة على كل من صادفها في حياتها باستثناء أمها الغائبة المفقودة.

هجرت غرفتها قاصدة أروى، وجدت الباب مهملاً وكمنومة مغنطيسياً واصلت سيرها إلى أن استقرت على كرسي بالقرب من سرير أختها.

في هذه اللحظة دخلت أروى مسرعة إلى الغرفة ثم جفلت مرتدة إلى الخلف عندما رأت أختها جالسة بهدوء ونظرها مركز على نقطة مستقرة بين سقف الغرفة وفراغها.

تقدمت ولم تشعر بها.

وعندما اقتربت أروى من حافة السرير لأقرب نقطة من الكرسي الذي يحمل تثليم، انتفضت الأخيرة بشكل مفاجئ كأنها ملدوغة.

ابتسمت أروى ابتسامة متساءلة، وقبل أن تضيف قالت تثليم:

ـ أشعر بضيق شديد، لذا أرغب في الجلوس معك لوقت قصير، أشعر بالاختناق في غرفتي..

تبادلتا أحاديث حول الفتيات والمدرسة والمغامرات والمعاكسات والحفلات، قصص عالم البنات المغلق بطبيعته وشذوذه، قصص العلاقات الافتراضية، وبنات النت والفيسبوك.

قطع رنين الهاتف حديثهما. وبدأت أروى تتحدث إلى الطرف الثاني بصوت مخنوق وهامس.

شجعتها ابتسامة من تثليم لرفع الصوت والتحدث بصورة طبيعية، والأخيرة تستمع وتحاول التقاط أطراف الحديث ومعرفة ما يقوله الطرف الآخر من خلال حديث أختها المسموع. وشاركتها الضحك في فترات متقطعة، ثم مدت إليها السماعة لتحدث زميلاً يجلس بالقرب من صديقها، ودار حديث ليس بالقصير، عن المواصفات والأغاني، والأحلام، وبعض الرومانسية السريعة.

وما أن انتهت المكالمة حتى بدأت مكالمة أخرى تشاركا فيها مجدداً، تحول الأمر إلى عبث، و...

في قمة فوضى الحواس نعبث بقوة دفع أكبر، لعل الأكبر يخفف الظاهر، فكرت تثليم.

ثم دار الحديث عن نجوى وما تعيشه من وضع نفسي سيئ بعد ترك

عابد لها. وحاولت تثليم عبثاً أن تدافع دفاعاً مبطناً عنه، إلا أن أروى بحماستها لم تدع لها مجالاً للاستمرار.

أحست بأن أختها لا يمكن أن تمنحها عزاء الفوضى والعبث غير المفهوم، فتركتها وغادرت الغرفة.

فكرة واحدة تسيطر على ذهنها الآن، ذلك الحضور الغامض لعابد ثم مغادرته، كأنما جاء ليضغط على يدها ويعود. وتأملت في مخيلتها صورة قوامه وهو يغادر المكان. شعرت بوخز الأنثى، لكنها طردت كل شيء إلى اللاشيء.

اعتادت تثليم عندما تكون مستلقية على سريرها أن ترسم منحنيات لحياتها تتراوح بين الصعود والهبوط والاتزان، وسقف غرفتها هو اللوحة التي تحوي تلك المنحنيات التي تحددها بدقة باتجاه نظراتها.

وهي تنظر إلى السقف استقر نظرها على إحدى المنحنيات الهابطة، فقفزت من على سريرها باستقامة واحدة واقفة، وظلت كذلك لثوانٍ، ثم هبطت من على سريرها، كأنما تهبط من كوكب إلى آخر.

احتضنت نفسها، تحسست أجزاء جسمها، تأكدت أنه لا يوجد منفذ لنور خارجي إلى داخل الغرفة، وأطفأت الأنوار.

تذكرت المفكرة السوداء وغيابها عنها منذ عدة أيام، وراحت تبحث عنها تحت الوسادة ولم تجدها. اهتزت زوائد جسمها وأصابتها ارتعاشة زادت معها خفقات قلبها. ومن دون مقدمات، عادت إلى وضعها الطبيعي،

خفتت التفاعلات الكيميائية داخل جسمها حين تذكرت أنها لم تخرج

المفكرة من الحقيبة منذ عودتها من المستشفى.

التقطتها وعادت إلى السرير ووضعتها تحت وسادتها.

شيء ما جذبها إلى الهاتف، رفعت السماعة وبينما هي تهم بأن تشرع في بداية رقم نجوى جاءها صوت عابد وكأنه اختار هذه اللحظة بالذات.

لم تجد تفسيراً لذلك. راحت تحييه بحرارة فاقت تحيته هو.

دار حديث طويل بينهما كسر حواجز كانت تحتاج إلى وقت طويل حتى تُلغى.

هو كان على ما يبدو حذراً من أن يتحول الحديث عن نجوى، وهي أيضاً كانت تحمل نفس الأمنية ولكن لا ترغب بالاعتراف بذلك صراحة. ترجو أن تظل نجوى خارج الحديث والذاكرة موقتاً.

وبهذا الاتفاق الصامت سارت المحادثة بذات الرغبة غير المعلنة، كما تمناها كل واحد منهما. ظلت طوال المحادثة الهاتفية تمسك سماعة الهاتف بيدها اليسرى وتتحسس اليد اليمنى، التي احتضنها في كفه عندما التقته لأول مرة بصحبة نجوى، والثانية في العيادة حين أوصلها ياسر.

فجأة اختل توازن تثليم وفقدت سيطرتها على أجزاء جسمها، ولم تدرك كيف كانت مسارات الدم في تلك اللحظات، عندما أعلن عابد صراحة عن إعجابه بها وبجمالها وأنوثتها.

كان يخشى ردة الفعل المتوقعة متى ما ربطت بين حديثه وموقفه تجاه نجوى، لكنها ظلت على ما يبدو أحرص منه وأكثر حساسية لدرجة أنها تناست نجوى وألغتها من ذاكرتها.

بعد انتهاء المكالمة ظلت كلمات الإعجاب والثناء الدافئة التي سمعتها تطوف بداخلها وتمنحها إحساساً لم تجده من قبل. فهي أول كلمات إعجاب وثناء تسمعها في حياتها، وأول كلمات تشعر بوجودها كلمات لا سبيل لاستيعابها لا هذا الخواء.

ياسر أخطأ التوقيت هذه المرة عندما اتصل بعد دقائق معدودة، الكلمات التي تلقتها، كانت تقارن كل كلمة يقولها بما قاله عابد.

ولم يكن الأول يعلم كيف تفكر الآن.

النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه المكالمة جعلتها تستعجل نهاية المكالمة بطريقة غبية ومكشوفة لم يستسغها هو، فكان رد فعله رسالة قصيرة أحضرها بنفسه إلى تثليم في ذات اليوم ولم تقرأها إلا بعد مكالمة دافئة من عابد.

كرر فيها كلمات الإعجاب تلك وأضاف إليها قصائد انتقاها من ديوان (لا تكذبي). من دون أن تدري، مما جعل الرسالة تفقد وقعها وأهميتها لدى تثليم وتقرأها بصوت مسموع أمام أروى التي وجدت أختها ولأول مرة تحمل كرهاً خفياً لياسر لم تتوقف عنده طويلاً.

وليأتي صوت ياسر عبر حروفه خالياً من الصدى:

«كنت طفلاً صغيراً عندما حملتك بعنف في قلبي،

والتراب في وجهي، في ثوبي، حتى في خصلات شعري يتناثر لأجعلك، تبتسمين أمامي، أغمس عينيَّ في الأرض، أقدم لك حياة الممثلين لأجعلك تبتسمين،

أقطع ثوبي الوحيد قطعة قطعة، الفتيات ينظرن إليّ غارقات في ضحك لا ينتهي،

أنتِ بقيت صامتة متجمدة ترفضين الابتسامة.

الطين في كفي، وقطع ثوبي الوحيد في يدي الأخرى، وترفضين الابتسام،

أو حتى القدوم إلى ساحتي،

دموعي جرفتيها أنتِ، ضحكتي اغتلتها أنتِ،

ودموعك لا تردعك، وضحكتك تغير في ملامح وجهك،

تلذذي بما تريدين، ببرودك، بتبلدك، بانتقامك من الآخرين في تثليم.

لا أود أن أعاتب أكثر مما عاتبت، ولا أن أشكو مثل ما شكوت..

أتظلمين وأنتِ ضحية ظلم،

أتقسين وأنتِ عذاب القساوة،

أتجرحين وجراحك لم تشفَ بعد، أنهكت قواي، فلا تخوني..».

ياسر

انتفضت وهي تقرأ المقطع الأخير، وأطلت دموع من عينيها، وبهدوء غادرت أروى غرفة أختها، الوقت متأخر ولا شيء له علاقة بالعالم الخارجي، كل خطوط التفكير موقوفة أو ممنوعة، حالة هدوء كامل، وثقت تثليم أنها وحدها، أقفلت الباب وكررت قراءة الرسالة أكثر من مرة، باغتها صداع ضياع حاد، أصابها بدوار وشعرت بالاشمئزاز من نفسها واحتقار ذاتها وبكت بحرقة كمن تعاقب نفسها، أو تحرقها بدموع لا نهاية لها، آمنت لبرهة أنها الجلاد والضحية.

تذكرت صحتها المعتلة وما أصابها قبل فترة ليست بطويلة، فعدلت من جلستها وغسلت وجهها وجذبت كتاباً مصوراً، تتطلعت فيه، لكنها لم تخرج من حالة الحزن إلا من خلال اتصال مفاجئ في غير وقته.

تلقت اتصال عابد بفتور، وبمهارة ونجح هو في أن يجعلها تتجاوز هذا الفتور.

كانت المكالمة هي الأطول. جرأته لا حدود لها أو هي مبنية على استنتاجات دقيقة، عندما صعقها بدعوتها لتناول العشاء معه، في مدينة محفوفة بالمخاطر، لم تفكر في المغامرة كثيراً «من لديه لا شيء يفقده تصبح المقامرة أو المغامرة طقس أمر عادي، ماذا يمكن أن يحدث في فوضى عارمة؟». قذفت بالسؤال لأعماقها، لكنها بقيت تمسك بخوفها.

كان يدرك أن الظروف التي عاشت فيها إلى اليوم لا يمكن أن تجعل المحاولة سهلة، كل شيء حولها كان مغايراً للوضع القائم، لم يتوقع أن يأتي الرفض قاطعاً، لكن توقعاته تقول إن سبب ترددها الخوف في مثل هذه البيئة، إلا أن قدرته على الإقناع استخدمها بقدرة ومهارة ذكيتين، ووضح لها أشياء خفية قد لا يراها من ينظر إلى الطاولة من أعلى إلى أسفل وليس العكس.

وجدت في هذه الدعوة فرصة لوضع جديد تكتسبه وقتل العزلة التي تطوقها، العزلة التى بقيت شماعة وسبب لشجاعة مواجهة المحظور، وهي ترى دائماً أن العزلة المفروضة والمحاصرة، كما الشعور بعدم الثقة سبباً قوياً ومقنعاً لتجاوز بعض الخطوط الحمر، بل تحديها ونسفها.

بطريقة ماكرة ومثيرة تدبرت أمرها للقاء به، حيث تولى ياسر إيصالها إلى نجوى وأوضحت له أن سائق نجوى سيتولى إعادتها. في هذه الأثناء كانت علاقة ياسر وتثليم يكسوها برود مشترك ومجاملة، حالة لم يسبق لهما اختبارها. إلا أنها على ما يبدو كانت واثقة بمكر أنثوي غير ناضج أنه لن يرفض لها طلباً كإيصالها، فهي فرصة تمنحه هبة تقبيل يديها أو ما هو أبعد من ذلك لو أراد.

لبثت عند نجوى وقتاً قصيراً بحجة أن ياسر ينتظر، وحين خرجت كان عابد هو الواقف بانتظارها مقابل بيت صديقتها.

لعبة مكر، لا يتفوق عليها إلا تمرد الأنثى في أقصى ظروف حجرها، وها هي تقفز بين وجع ياسر وجرح نجوى.

تمر الفكرة برأسها لكنها ترمي كل شيء خارج حدود عقلها وتتقمص دور المغامر بلا حدود، بلا قانون للعبة، بلا رضوخ لمعايير الحياة الطبيعية.

«كيف لمن لم يعش حياة طبيعية وتجربة حرة مستقلة أن يفهم الحدود من دون عصا غليظة؟ وكيف لمن اعتاد العصا الغليظة أن يعيش بخلق الإنسان ورقيه؟». عبر السؤالان إلى ذهنها المشوش من دون عناية أو اهتمام.

بعد أن عادت إلى البيت وجدت أن هذه الليلة هي أجمل ليلة قضتها أو هكذا تخيلت. منذ أن حضرت إلى هنا شعرت بلذة كبيرة وهي تسترجع شريط تلك الليلة منذ أن ضم يدها في يده وهي بالسيارة وإلى أن قبلها وهما هابطان من المطعم، وتلك النظرات القوية التي وجهها إلى عينيها وهو يحتضن يديها بين يديه كعاشق ولهان. تذكرت أنها كانت تمارس كل ذلك باستهتار ومن دون أن يرف لها جفن، كان حلم، حلم اختبار أنوثتها.

أمر واحد يدعوها إلى الابتسام وهي تسترجع شريط العشاء وحركته المستمرة والتفاتاته الدائمة كلص..؟!

نامت تلك الليلة بعمق كأنها تنتقم من النوم. وفاقت صافية الذهن كما لم تكن من قبل. مازحت أروى كثيراً، وهمست أروى لها (حدث انقلاب)، فهمت وأطرقت برأسها.

تابعت:

ـ أراهن إن كان ياسر خلف ذلك كله.

احتقن وجه تثليم، بغتها التوقع أو أوقظها من حلم منقطع عن واقعها، تكدر صفوها.

فهمت أروى ودعتها إلى غرفتها وأخذت تريها لأول مرة صورة إبراهيم.

سألتها تثليم:

ـ والبقية؟

ـ لا يوجد أحد سواه هو فقط. واحتضنت الصورة.

ـ غداً نرى. وابتسمتا.

يبدو أن ياسر لم يستطع الوصول إلى تثليم، كرر الاتصال من دون أن يجدها. تحدث عن طريق الهاتف الاخر. نادت أروى على أختها لتخبرها بأن الحبيب على الخط، طلبت منها أن تعتذر بحجة انشغالها.

بعد أيام من المحاولات الحثيثة استطاع ياسر أن يتحدث إلى تثليم وانفجر فيها معاتباً ومستفسراً، يرغب في تفسير واضح.

وكردة فعل لهجومه أجابته:

ـ ومن أنت حتى تحدثني بهذه الطريقة.

كالمصدوم، صمت ثم أضاف:

ـ أنا خطيبك، أم نسيتي؟

فغرت فاها كأنها ووجهت بحقيقة لا تعلمها ولا ترغبها أو طواها في نسيان موقت، قبل أن ترتد للواقع، أن تصدمها صورتها الغائبة وعبث خيانتها.

«خيانة» استثقلت الكلمة، حاولت تجاهلها.

امتثلت ببرود وراح هو يطرح أسئلة عن الهاتف المشغول والانشغالات الجديدة التي تعتذر بسببها وأسئلة أخرى.

انسحبت بحجة الصداع، فصدرت منه تنهيدة عميقة، ووضع السماعة بقوة من دون أن يودعها.

لم تكن المشاعر التي اجتاحتها بعد تصرفها مشاعر حزن أو ندم، وإنما كانت مشاعر بين المبالاة واللامبالاة، بين الإحساس بفداحة ما حدث، وأنه أمر عادي، وبين ازدواجية روحها وغياب مشاعرها وعبثها، فوضى أنثى وطغيان كل ما حولها.

أصبح كل شيء يتطور بسرعة هائلة في علاقتها بعابد وياسر وتداخلها إلى أقصى ما يمكن مع أروى.

تطور آخر كان يتم وفتنة استمرت لأسابيع بين زوجات الأب والأخوة غير الأشقاء، وصولاً إلى الأب، كل شيء كان يحدث بسرعة فائقة، فنساء البيت لم يغفرن لياسر هجومه على البيت، وإحضار الطبيب، واختطاف تثليم للمستشفى من دون محرم، وحين اجتمع الأب بزوجته الأولى والثانية على انفراد لمعرفة التفاصيل، قرر على الفور إعلان فشل مشروع الخطوبة، واعتباره خطأ يجب تصحيحه، مذكراً بحكمته على جعل الإعلان سريًّا.

تثليم لم تكن مصدومة من القرار أو منزعجة، كان استسلاماً أقرب للاعتراف بأنها لا تستحق ياسر، أو هكذا خففت الصدمة، وسط مشاعرها المضطربة.

كانت تجد أن علاقتها مع ياسر تتجه إلى نهاياتها، عكس مغامرتها في بعدها الجديد مع عابد، فيما ظلت نجوى خارج القائمة.

وضعها داخل الأسرة تبدل، من كانوا معها بمن فيهم الأطفال بقوا أقل عداوة، لكن أكثر رغبة في السخرية، فقد فقدت «خطيب الغفلة» كما يهمسون، هي تعزو ذلك أحياناً إلى أنهم أصبحوا يسيطرون عليها، كما شعورها العميق، إنها فقدت سبب تفوقها على أروى.

كل الأشياء أصبحت مشوشة، الحياة من حولها علاقاتها، تجربتها السريعة، وحتى الشخصيات الكاريكاتورية من حولها أصبحت مسخاً من حديقة الحيوانات، لدرجة أصبحت تمنح كل من يدخل في مجال تغطيتها وصفاً حيوانياً بينها وبين نفسها، على هذا النحو أصبحت تصور شخصيات من حولها، بين أبقار وماعز وثيران وأرانب وزرافات وغربان وحمير.

سخطها على عالمها الخاص، وعلى نفسها جعلها تسلم بهذه الصور الحيوانية كأفضل ما يكون الوصوف لحالتها، وفي لحظات فوضويتها القصوى تحاول أن تختار لنفسها صفة حيوانية لكنها تعجز، تعجز لسبب خوفها وكرهها لعالم الحيوان حين يقترب منها.

المفارقة التي ظلّت عالقة في ذهنيتها باستمرار تكمن في الفارق الكبير بين شخصيتي ياسر وعابد. أحدهما متمكن ذو شخصية ثاقبة «قط كبير»، وقدرة على المحاورة والإقناع، وجريء وشجاع، يتجاوز لمسات الأيدي.

الآخر متردد، شخصيته ذائبة «فأر جميل»، بارد في محاورته، يستسلم بسرعة، جبان، شجاعته لا تتجاوز لمس اليد.

عند هذا الحد كانت تقف المفارقات لديها. وكل يوم إضافي تسجل فيه نقطة لعابد مسحوبة من رصيد ياسر، أو العكس، كانت تتلذذ بهذه اللعبة في رأسها.

لكنها ترتد إلى واقعها بشكل صادم، كمن يقع من علو شاهق، من دون أن تدرك أنها فقدت مخلصها «فأرها الجميل» إلى الأبد، وأن «القط الكبير» قد يكون مجرد لعبة مسلية وخطرة، لكن نهايتها عذاب يجمع الأول على الآخر، ذاك إحساسها وحدسها.

لم يكن ذلك العشاء هو الوحيد الذي دعاها إليه عابد، بل خلال فترة قصيرة كانا قد التقيا أكثر من مرة، وفي كل مرة كان يسجل معها شجاعة جديدة، وياسر يتلاشى من ذاكرتها بعد المكالمة التي حدثها فيها بصوت متراخٍ وهو يبكي ويردد كلمات لم تفقهها. إلا أنها أدركت في ما بعد أنه في حالة غير طبيعية ويلقي باللوم عليها ويتساءل عن أخطاء ارتكبها في حقها.

في أمسية من يوم بارد من أيام الشتاء القارسة، أعدت تثليم نفسها جيداً لمناسبة تقضيها خارج المنزل مع نجوى التي خرجت من أزمتها مؤخراً وأروى وصديقات لهن. وكان الترتيب الذي رسمته تثليم أن هذه المناسبة تبدأ ما بين الساعة الثامنة إلى التاسعة مساء وتنتهي الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل. فكان الاتفاق بينها وبين أختها أروى أنها

ستنتظر إلى ما بين الساعة التاسعة والنصف والعاشرة وتغادر المكان. وأروى تعلم أنها على موعد مع صديق لها، لكنها لا تدرك من يكون ولم تجهد نفسها لمعرفته. المهم بالنسبة لها أن يكون احتمال أن يصبح ياسر من دون أن تسعى إلى معرفة التفاصيل.

عند الساعة التاسعة والنصف طلبت نجوى السائق بتحريض من أروى ليعيد تثليم إلى البيت بعد أن أصابها صداع. فعلت نجوى وجاء السائق. ركبت تثليم وأصرت نجوى على أن توصلها إلى البيت مع السائق إلا أن تدخل أروى أنقذ الموقف.

انطلقت السيارة بتثليم وهي تشعر بسعادة. نظرت إلى الزجاج وأدركت أن من بالخارج لا يدرك ما يجري بالداخل.

تجرأت وطلبت سيجارة من السائق. قدمها لها بلطف وأشعلتها بمساعدته وأخذت تنفث الدخان باتجاه لا نهائي.

مقاومة الرجس. .

زلزال يهد كيانها كل مرة، ومنذ اللحظة الأولى التي قالوا إن هذا هو النور، ووصلت إلى القشرة الخارجية من الوجود، وحتى صارت كائناً محسوساً، وضعت بعده في قائمة التعداد السكاني للبشر المقيمين على هذا الكوكب. قبل وبعد أن عرفت شيئاً يسميه البعض منا الحياة.

حياة لكن ماذا يكون هذا الكائن؟ الحياة؟

كائن كبير وفضفاض يجمع كل الاشياء في حزمة واحدة، تحت معنى واحد، طعمه مر، حارق، موجع، يقف متربصاً فقط للحظات الجميلة من أجل اغتيالها، حتى صار الطعم «الحلو»، مجرد أجزاء عابرة في الزمن والذاكرة.

الحياة. . لا شيء يغري في هذه الكلمة منذ أبصرت الوجود، أو أدركتها، بل على العكس بشكل حاد، ورهيب، الحياة بالنسبة لها نغم شديد الألم، منذ النور الأول، والظلمة باقية، هل هو القدر، قدر الوجود في المكان والزمان. .

في فراغ لا نهاية له، لا وعد له، لا أمنية باقية له.

أن توجد في أتعس الظروف، في أصعب الأمكنة، تتقي حظاً عاثراً يزداد صلفاً وهيجاناً، وتزداد مقاومة وعجزاً وضعفاً وتشبثاً بحياة معناها أقرب للفقد من الحضور.

«ليست ساعة ولادة، لم أشعرها كذلك، لم تكن أبداً ذلك الشيء الذي يوحي بالحياة أو ما شابهها، كان شعوراً ثقيلاً وغامضاً، لم أصرخ، لم أبك، لم أبتسم، لا شيء البتة، كانت أقرب إلى إعادة القذف بشكل عكسي إلى عالم كبير ومجهول، بلا ملامح أو أشرعه».

كانت أقرب إلى التخلي، كانت يد تقذف بي نحو جزء آخر ظاهر، غير ذلك الباطن الذي بقيت فيه لوقت، هكذا أرسلت إلى مصير مجهول، حتى ذلك الحبل السري، كان أشبه بقطع خيط النجاة، وإسقاطي من الرحمة، عبر آخر الممرات إلى كون آخر.

مشهد تيه جديد، شعرت به من ذلك الوقت، أيقنت به من تلك اللحظة، كانت يد ما، يد القدر، يد الرحم وحباله، تنزع عني، لتهوي بي إلى مصيري وعالمي الموعود والصاخب، والصلف، والشقي، والقاتل، كل ما تذكره من مرحلة الانبثاق الأول، كان تحديداً القذف، القذف إلى عالم العذاب، إلى ما يقال عنه «الحياة».

ومن تلك اللحظة كانت القسوة هي العذابات في كل تصوراتها وتجسداتها وتفننها، تلك فقط كانت أولى الإشارات للتالي، لا أدري هل كانت لعنة الناس، أو الجهل، أو المكان، أو شيئاً آخر، لكن كل ذلك لا يغير في سياق روايتي وحكايتي شيئاً؟

على العكس، على العكس يزيدها تعاسة، وغبناً، وظلامات، وذلك كان الوعد الصادق الوحيد الذي منحته الأقدار لقامتي، ولوجودي، وحياتي، ذلك كان الإعلام الأول للتالي، لكل التفاصيل الكامنة في سر الحياة ومنجميها وتخمينها في أقصى مراحل قهرها.

قد لا يصدق الجميع ما أرويه، أو قد لا يهتم البعض لحقيقة الرواية، لكن شيئاً حدث، قصة سوداء كتبت، وهناك الآلاف تشبهها وإن تغيرت الوجوه والأسماء والأجسام.

صبرت، أخطأت، غامرت، خسرت، هزمت، تقدمت، لا أدري، لكن عشت كما قدر لي، الآن هنا، في فاصل يبلغ مداه ثلاثين عاماً أو تزيد قليلاً، لأن هنا في هذه المرحلة، لا زمن يخترقني أو يحدد مساحاتي، لا فكرة، لا شيء، لا ألم، لا حزن، لا فرح، لا استرخاء.

فراغ، مجرد فراغ هائل تقذف فيه الأشياء، كما لم يكن من قبل، كما لم تكن من قبل، ولن تكون بعد ذلك.

كيف يكتب الفراغ؟ كيف يدوَّن على هذا الواقع؟ كيف يمكن لكلمات أن تولد في الفراغ، ما معناها؟

الفراغ القاسي، أكثر طغياناً من كل المشاعر، أكثر طغياناً من الألم، من الموت نفسه.

كيف يمكن تدوين أو كتابة فواصل للفراغ، كيف يمكن تجسيد الفراغ الذي لا يشبه إلا فجوة مظلمة، ثقب الروح الأسود، هل يوجد وصف آخر له؟

لم أتخيل الكتابة، لم أسعَ إلى تحويل روحي المتعبة إلى كلمات، لم أوافق على توثيق مرحلة قيل عنها إنها «حياة» أو هكذا ينعتها البشر؟

لم أفكر في تدوينها، لكن ليس باليد أو بالروح حيلة، فقد كتبت ودونت حياتي نفسها، حفرت كل تفاصيلها في خاطري، في قلبي، في عقلي، وفي أجزاء جسدي المنهك، وفي أطرافي السود؟ وهل بعد هذا من إيمان؟

لست متمردة بما فيه الكفاية، بل لست حاملة لجينات قد تدعم تطبيق بعض الأفكار القابعة في أطراف رأسي المغلق عن الكون كله. أو هكذا أقول لأشعر بالراحة والاستسلام.

قد أمارس دور الضحية، ضحية الزمان والمكان، لكن ذلك لم يعد كافياً وأنا أقترب من سن تخافها النساء وتحلم بها ليل نهار، مرحلة أُطِّرت باسم «اليأس»، ماذا يا ترى يحدث حين أصل إلى مرحلة سن اليأس هذه، فيما أنا لم أعش حياة تذكر قبلها؟ هل فعلاً هناك فارق بين ما قبل وما بعد؟

جولتي طوال السنوات التى مضت من عمري، جولة خاسرة مع هذه التي يدعونها بالحياة. هل مقصود تأنيثها؟ هل انتبه قومي إلى التأنيث هنا؟

خاسرة من دون شك، أكتبها هنا، من أجل أن أحاول تسجيل احتجاج على الطريقة التي فرضت أو التي قبلت بها، أو التي استسلمت لها، أو التي قادني القدر إليها، أو.. أو... أو....

مهما يكن ساكتب اختصاراً موجزاً لعلّي أخفف بعض خسائري وأشارك في منع ما قد يفقد مستقبلاً.

لقد شعرت طوال تجربة الحياة التي مرت بي أن هناك شيئاً أشبه بالمافيا، تحاصرني من كل الاتجاهات، وذلك من أجل أن أبقى ذليلة قابعة في زوايا الظلام. حقيقة هذا الشعور الذي ينمو داخلي في كل مراحل حياتي، أكثر من نمو أنوثتي وجسدي، لقد شعرت بأن الكون ورجاله قوى خفية تحاصرنا من أجل أن تضمن استسلاماً دائماً لروحنا وسلوكنا وثبات لعادتنا وتقاليدنا، وتحجيم لنا، بل إلغاء لوجودنا.

إنها مؤمرة رجالية دينية اجتماعية فرضت علينا نحن النساء في هذا الجزء من العالم قمع قادم من عصور الظلام. شيء أشعر بأن لا علاقة له بثقافتنا الأصيلة أو بهذا العالم.

لكنه شيء مختلف البتة، شيء مصنوع وفق رغبات محددة، وبجهل مطبق أيضاً.

تثليم

خسارة وتفاعلات . . .

بعد قليل كانت قد وصلت إلى الموقع المتفق عليه بالقرب من سوق صغير. أوقفها السائق واتجهت إلى داخل السوق بعد أن تأكدت أن السائق قد رحل. خرجت فوجدت سيارة عابد الفارهة تقف مكان سيارة نجوى. اتجهت إليه وركبت إلى جواره. كانت شجاعته أكثر من أي مرة سبقت، وفور ركوبها بادر إلى طبع قبلة على خدها الأيسر، وانطلق بسيارته وهو محتضن يدها.

سألته عن الوجهة، أخبرها أن لديه مفاجأة. أخذت السيارة تقطع الطريق بسرعة فائقة. وبعد دقائق توقفت أمام إحدى العمارات الضخمة. سألت عن المكان، فوضع سبابته على شفتيها وأشار برأسه. تبعته وركبا المصعد إلى الطابق السابع.

شجاعته المتناهية هذه المرة جعلته يطبق شفتيه على شفتيها ويدخلها في إغماءة اهتز لها عالمها قبل جسمها. عندما توقف المصعد في الطابق السابع كان كل شيء قد عاد إلى مكانه.

خرجا من المصعد وأدار المفتاح في الشقة المقابلة له رقم (٣٤). دخل هو أولاً وبخطوات متثاقلة دخلت خلفه.

لم تكن لديها أي فكرة مقاومة، كان العبث قد طغى على أي فكرة أخرى، لا خوف، لا تردد، ولا سؤال أيضاً.

إضاءة الشقة خافتة لدرجة لا يمكن معها تمييز الأشياء.

الجو دافئ مع تيار هواء بارد ينساب من الخارج في فترات زمنية متقطعة.

كل شيء يوحي بالانسجام، ويوحي بقيمة هذه الشقة وتكلفتها الباهظة.

أخذها في جولة على أرجاء الشقة ليمنحها الاطمئنان. نظرت إلى المطبخ فوجدته متكاملاً بكل وسائله وتجهيزاته. ثم انتقلت إلى غرفة الجلوس التي يغطيها لون غامق يصعب تمييزه، ورأت صالة صغيرة للطعام توحي بأناقة رائعة.

حلمت بالعيش للابد في هذه المساحة المرتبة، من دون ازدحام أو ضجيج الصغار، حلم بأنه بيتها ومسكنها الأبدي، وأن عابداً أعده لها مستقراً خالداً، فكرة لذيذة مثل هذه لن تدعها تغادر خيالها.

جذبها إلى غرفة أخرى فيها سرير منفرد وقطع صغيرة أخرى منثورة. وسحبها إلى غرفة مكتب، أدهشها المكتب وفخامته ودقة النقوش عليه، وجهاز الحاسوب الموضوع بشكل ملفت في حجمه ومؤثراته.

آخر مكان مر بها عليه كانت غرفة النوم، وهي غرفة غطي كل شيء فيها الريش والجلد الطبيعي حتى أرضيتها. يتوسطها في المركز سرير نوم مكتمل الأناقة. اللوحات تنتشر في كل مكان، والستائر منسدلة بشكل

فائق الدقة، لونها الخمري يريح العين ويدعوها إلى الاسترخاء، والحمام الضخم في طرفها أشبه بتصميم فني باذخ.

هذه الجولة زادت من رهبة تثليم واوقفت خيالها وحلمها بالمكان، شعرت فجأة بالرغبة للعودة إلى الصالة الرئيسية بالقرب من مدخل الشقة، استقرت هناك وطلبت كوب ماء علّه يساعدها على التقاط أنفاسها وسحب خيالها مجدداً.

جلسا معاً في الصالة الرئيسية للجلوس وبدأ يتحدث إليها بطريقة عادية وبكلام مباشر وعام. أشعل سيجارته وقدم لها سيجارة أخرى. غادر المكان لإعداد كوبين من القهوة وهي تسبح في خيال لا تفاصيل له. عندما بدأت تكتسب توازنها قرصت نفسها أكثر من مرة لتتأكد من صحوها من حقيقة المكان.

من واقع ما تقوم به، من حقيقة المشهد منذ البداية إلى اللحظة.

طلبت كوب قهوة آخر، جلس إلى جوارها، طلب يديها واحتضنهما بيديه وقبلهما وضمهما إلى صدره أكثر من مرة.

قال لها كل شيء، حدثها عن حبه لها وعشقه وأشياء أخرى هامسة. قدم لها أمنيات تتلصص على خيالها، بأن يظلا إلى الأبد في هذا المكان معاً. التقطت هذه الأمنية وباحت له برغبتها في ذلك وحبها له وولهها فيه وأمنيتها أن تعيش امرأة تحتضن بيتها ويحتضنها بيته.

ألمح لها أنه بحاجة إليها وأنها بحاجة إليه. آمنت أنه الخلاص الأوحد لها والمنفذ الضيق الذي قد يعيدها للحياة ويجعلها كالآخرين في هذا

الكون. وكان هو أذكى من أن يغتال هذا الحلم. قدم وعوده وعهوده ومواثيقه. فأعطته ما لم تعطي أحداً من قبل، وذهبت معه إلى أقصى درجات الشجاعة راضية مطمئنة مستسلمة لا تعترض ولا تمانع.

في اللحظات التالية وبعدما أفاقت من ذلك الحلم المخدر ظلت ترتجف بلا توقف، ارتعشت كل أجزاء جسمها، تسمّر وتوقف تفكيرها، فقدت حواسها، زادت خفقات قلبها، أجهدت شعيراتها الدموية، وأصيب قلبها بالشيخوخة.

تضاعفت التفاعلات داخل جسدها إلى أكبر قدر يمكن أن يحدث. ظلت تدعو وتصلي وهي مغمضة عينيها بأن تكون في حلم أو كابوس وأن تكون خارج دائرة الحقيقة، خاج المكان والزمان.

استعرضت كل الأحداث العنيفة والصراعات والحروب والمجاعات التي يمر بها كوكبنا، وضعتها في كفة ووضعت حقيقتها في كفة، فكانت كفة كوكبنا طائشة لديها، وكفة حقيقتها ثابتة راسخة لا تتزحزح. جفلت وكأن قلبها يجتث من عروقه. شعرت بأن شرايينها وأوردتها تنفصل قطعة قطعة، جزءاً جزءاً.

هزات أرضية تتوالى من تحت قدميها بمقياس يفوق المعدلات القصوى لريختير.

فقدت كل شيء هكذا، وجدت نفسها هكذا، تمنت ألا يجدها الآخرون، أو يدركون أن أضعف حاجز وأقوى محظور وأكثرها منعاً للتجاوز لم يعد مكانها... (عذريتها)..

حاول عابد وهو يشعر بشيء من تأنيب الضمير المستتر تهدئتها، وإخبارها أن ما حدث لن يغير من الأمر شيئاً ما داما سيظلان إلى جوار بعضهما طوال العمر، مؤكداً أن ما حدث سيجعلهما أكثر صلة ببعضهما.

كان هذا هو العزاء الوحيد الذي يمكن أن تتشبث به الآن، وهو خيط (الستر) الذي أمامها. اجترت ذلك على مضض وطلبت مغادرة المكان.

طوال الطريق لم تتحدث بكلمة ولم تدرك شيئاً مما قاله عابد سوى بعض الضمانات التي قدمها لها. إلا أن شعورها لم يكن معروفاً بدرجة كافية حتى موقفها تجاه ما حدث يصعب تحديده بدقة.

عندما استقرت في غرفتها كان العالم يحتضر أمام عينيها، ويداها مربوطتين بين رجليها. دار بفكرها كل الاكتشافات العلمية والاختراعات الطبية للإتيان إليها بما فقدته.

ضاقت الدنيا في عينيها، ولم تعد ترى سوى أشباحٍ تهاجمها. لم تدرك السبب الذي جعل هذه الأشباح تأتي بأشكال أعمامها (إخوة أبيها)، وهي لم ترهم سوى تلك المرة.

دار صراع غير متوازن القوى، فأنقذتها إغماءة لم تكن تعرف إن كانت ستعود للحياة بعدها. حتى طوال إغماءتها كانت تلك الأشباح تطاردها وتقلبها على الجهات الأربع بعدما تشبع كل جهة بالضرب.

في صباح اليوم التالي لم يمنعها وجهها الأصفر الشاحب وقوتها المتهالكة من الخروج من غرفتها. واللباس بسمة تبدو غير متناسقة مع

ملامح وجهها تلك. خروجها ذلك وبهذه الحالة كان جزءاً من خطة تكتيكية اتبعتها حتى تبقى ليلتها (سراً).

الذين شاهدوها في ذلك اليوم أرجعوا سبب شحوبها واصفرارها إلى حالة المرض التي تنتابها بين وقت وآخر.

ظلت طوال الوقت تتحسس أجزاء من جسمها وهي في عزلتها لتتأكد أن كل شيء لا يزال مكانه. وبقيت مستسلمة للبكاء والحزن يزداد في إيلامها. آلام حادة في الجزء الأسفل من جسمها تشعر بها بين وقت وآخر.

وكمن يسبح عكس التيار، كانت تقاوم كل أفكارها، تحاول أن تجد طريقاً للخروج من دوامتها مقللة في الوقت ذاته من حجم ما لحق بها من خسائر، إلا أن صورة أبيها بضخامته وشاربه الكث الأسود ونظراته الثاقبة ظلت تحتل الجزء الأكبر من تفكيرها.

شعور يتمالكها بأن عينيه ستكتشفان الأمر من خلال اختراق نظراته لجسدها وهي تحاول جاهدة قتل هذا الشعور. محاولاتها جميعها كانت تفشل عندما تضيف إلى ذلك الصور الجامدة لأعمامها فرحان، نواف وراشد.

تصورت المداولات التي تجرى بينهم بعد أن يكتشف أمرها واقتراحات العقاب من كل واحد منهم. تخيلت ذلك وأصابها صداع عنيف لا يتوقف. تشعر بأن جبلين صخريين يضغطان على رأسها وهي تبكي عاجزة.

حتى تلك الطرقات القوية على بابها التي تأتي أحياناً تشعر وكأنها تنطلق من داخل دماغها. كما وتسمع صوت ياسر بقوة غير مسبوقة وهو يتلو عليها الأسطر الأخيرة من الرسالة الأخيرة. نجوى تقابلها وهي تبكي تارة وتضحك تارة أخرى داخل عينيها، تحجب عنها رؤية الناس والأشياء.

إحساس كاد يقتلها وهي تسمع أنين أمها تبكي في قبرها هذه اللحظة، ولم تدرِ ماذا تفعل..

فكرت في كل شيء يمكن أن ينقذها من هذا الموقف، فلم تجد من يمكن أن يخفف عنها، لم تجد أحداً بالقرب منها.

أروى كانت خياراً مطروحاً، لكن سرعان ما استبعدتها في ظل العلاقة الخاصة بين أروى ونجوى. وصلت إلى أقصى نقاط العجز والشتات والحيرة والضعف. توسلت لكل شيء يمكن أن يساعدها. حسابات الزمن وعذابات المكان والآتي. كل ذلك سيطر عليها. أشعلت أكثر من سيجارة من دون تحفظ ورغبت لو كانت تملك غير علبة سجائرها..!

البكاء المستمر كان المصاحب لكل هذه الإيقاعات الصاخبة. دست رأسها في وسادتها، وأشياء كثيرة مرعبة ومخيفة وفي أقل الدرجات مجهولة وغامضة تتجول داخلها..!

بعد عدة ساعات والصداع لا يزال يرافقها والدموع علامة مميزة لخديها، أخذ تفكيرها يتحول نحو منحى آخر، نحو شيء من المنطقية..!

بدأت تسترجع فواصل علاقتها بعابد منذ البداية، ولماذا أخذت هذا الاتجاه بالذات؟ إلى أن وصلت إلى مشهد حياتها الآن. تصفحت أوراقه ورسائله التي بعث بها، أعادت قراءتها لعلها تكتشف سراً، أو على الأصح تؤكد لنفسها أنه لا يزال على وصال معها ولن يخذلها. شدتها هذه الرسالة وكررتها أكثر من مرة.

تتقلطع قدماي، أخطو إليك أم أنسحب
أم أترقب لحظات بلا معنى، وتلك ساعة اليأس
أتلمس نبرتك، أجدها أنغاماً ووروداً
وصورتك في خيالي... لجمال ثورة الشمس
أبحر في فكري، هل أخطو إليك أم أنسحب
أحياناً، تغيبي خلف ركام السحب،
تارة تبدو صورتك،
وتارة تهرب الجملة من فمي، وأعيش في حيرة.
أشعلت شمعة حياتي، أتلمس في العتمة طريقك،

أرتجل الحديث مع الآخرين، كيف تبدين وكيف ستكونين..!!
لا مجال للنقاش، الدقائق كشفت أنغام الصباح وأزالت الغيوم
صوتك هزّ كياني، اقتلع جذوري، تلاعب بخصلات قلبي
زادت حيرتي، تصادمت مشاعري، عجزت عن تمالك نفسي، وارتعشت يداي..!!

خسرت الرهان، ولم تتدفق خواطري سوى في سواد الليل..

أردت أن أهذب حديثي، أنمق كلماتي كما يفعلون، فاشتكت حروقي، خرجت وتداعت.

صرختِ فيّ: ما بكَ، ألا تجيد ترتيب الحروف؟

وبقيت بالداخل متمسكة بالخوف، حاولت من ذاتها أن ترتب نفسها، والتف لساني في سقف في فمي. بحت الحديث، حاولت الحركة، جمدت كدمية.

عادت خصلات قلبي للرقص وأخرجت ثلاثة حروف، قد لم تدركيها بعد...

عابد

حين أنهت قراءة الرسالة اقتنعت بأن عابد صادق في كل شيء، وقد يكون هو خلاصها الوحيد. لكنها كانت قد اتخذت قرارها باتجاه آخر ومن دون تصويت.

بقية اليوم مارست نشاطها داخل البيت بالشكل الاعتيادي، تاركة غرفتها لاحتضان أحزانها وبراكين بكائها وأمطار دموعها..

ما بعد الخطوط الحمر . . .

الجزء الأكبر من الخوف والهلع الذي أصابها يرجع إلى إحساسها بما يمكن أن يحدث، نيات الآخرين تجاهها، والمصير الذي سيقررونه هم متى ما تكشّف للآخرين حقيقة أمرها.

إحساسها بما ستنال من الآخرين فاق إحساسها وأحزانها بفقدها شيئاً مهماً قد يحدد هويتها بين بنات جيلها، ويحدد الصفة التي يفترض أن تنالها، أو هكذا قيل لها.

قررت أن تخرج من حزنها وتتناسى الهزات العنيفة والأشباح المرعبة، وتطرد ضعفها لتخرج للآخرين في استراتيجية اتبعتها، هي من الذكاء والغباء والتبلد والانتباه في آن واحد.

ولكن، يبدو أنها لم تستطع تمييز الفواصل بين الممارسات التي تحجب رؤية الآخرين وبين الممارسات التي تزيد من حجم المأساة وحجم الكارثة بداخلها. ساعد على تغييب هذه الفواصل قرارها بقطع كل أشكال الاتصال مع عابد، لكنه قرار ظل تحت وقف التنفيذ، مع إلحاح أنوثتها المشتعلة وضعفها الشديد في كل مرة يتوسل عابد فيها إليها للقاء بها، تتبعها توسلات أخرى قد ترضخ لها.

في كل مرة، كانت تبدع أكثر من مرة في إيجاد الوسيلة التي تلتقي من خلالها به، بعد أن أدركت تلك الأشياء غير الظاهرة في بيئتها المحافظة واستطاعت بذلك أن تتقن اللعبة ذاتها بمهارة وتألق فائقين، وأكثر سخونة وشغفاً. كما أجادت في جعل الأمر سراً بعيداً عن آذان ومسامع البشر.

علاقتها بنجوى لم تتوقف بل ظلت مستمرة، وإن كانت أقل من وتيرتها السابقة، وأصبحت هي وأروى تجمعهما أشياء مشتركة.

كل واحدة كانت أمام الأخرى كتاباً مفتوحاً. إلا أن تلك الصفحة بطلاسمها وسريتها، تركتها تثليم من دون كشف.

في الأوقات القليلة التي تنتقل فيها ذاكرتها ويتحرك عقلها بتثاقل بعيداً عن عاطفتها وأنوثتها. كان هناك ما يعتصرها ووخز حاد يصيب أطرافها. وكل ذكرياتها كانت قنابل موقوتة، فوهة بركان تتصاعد منها أعمدة لا تتوقف من الدخان الكثيف الذي يسبق لحظة الانفجار. ذكرياتها منذ طفولتها حتى تلك اللحظة.

إلا أن هذه اللحظات التي يتحرك فيها عقلها لينتقل للواقع كانت على الدوام تجد صداً منها وخنقاً لهذه اللحظات.

دخلت إلى مساحات أوسع في عالم جديد لم تكن تدرك مساراته وحواريه وتشعباته. ولم تتوقف المغامرة عند عابد، فالعالم الذي تكشف لها لم تكن احتمالاته واردة، وتوسعت القائمة بتنوع المغامرات.

أروى كان لديها شيء من المعلومات عن تثليم واتصالاتها المتزايدة،

وكانت تستحثها بطرق مختلفة مباشرة وغير مباشرة على التمادي في ذلك، كذلك نجوى. إلا أنهما لم تكونا تدركان لقاءاتها بالبعض منهم.

ـ لم أستطع الوصول إلى تفسير لذلك. قد يكون لبوحي ولاكتشافه شخصيتي بأدق تفاصيلها سبباً في ذلك.

تفسر تعدد علاقاتها وتشعبها في أحيان عندما يبدأ القلق يصل إليها من معرفتها المتزايدة بالآخرين.

«بأنها لم تعد تثق في شيء اسمه الخلاص، الخلاص الوحيد تلبيتها لكل رغباتها، بالإضافة إلى كرهها لها في أحيان أخرى. وهو كره تحاول تغييبه حتى تصل إلى نتيجة نهائية، الاقتران أو اللااقتران».

وهي بهذا التفسير تعلن أن خلاصها الوحيد يتمثل في إيجاد إنسان يكون، فلا يهم من يكون بقدر ما يهم الخلاص مما هي فيه.

مقابل ذلك كانت أروى ونجوى تمتلكان علاقات مع عدد من الشباب، وإن كانت لا تصل إلى الكم الذي تحويه تثليم، وتبرران علاقتهما تلك برغبتيهما في الوصول إلى شخصين ترتبطان معهما برابطة (الزواج). هذا البحث عن هذه الرابطة جعلهن يغصن إلى أعماق علاقات حب طارئة أو عابرة.

في مجتمعهن المحافظ، ما يهم هو أن يجري فوق الطاولة وليس تحتها، وما يهم هو النتيجة وليس الوصول إلى نتيجة. وكأنها أصبحت قاعدة اجتماعية عامة اليوم.

تحول الصوت ـ الهاتف يشكل أداة الخلاص الوحيدة من العزلة

والوحدة والدخول في دوامات من الأفكار الحزينة أو حتى المفرحة. وبلغت درجة اندماجها وانبهارها في اللعبة نسيانها لمفكرتها السوداء أو إهمالها لها أحياناً سهواً وأحياناً عمداً.

وهي نائمة في أوقات كثيرة كانت تجد نفسها تصارع المجهول. إحدى المرات التي لن تنساها أبداً، استفاقت وهي تنتفض وهزات قوية تزحزحها من مكانها، وعرق يتصبب بكثافة من كل أجزاء جسمها. في ذلك اليوم شربت كميات هائلة من الماء، إذ شعرت بعطش لم تشعر به من قبل. وقفت أمام المرآة كثيراً ذلك اليوم تنظر إلى كل تقاطيع جسدها، وتطلعت كثيراً إلى أسنانها وهي في حالة فزع وهلع.

تتذكر أنها وهي نائمة أنها وجدت نفسها في ركن صالة الجلوس بالشقة رقم (٣٤) في تلك العمارة الضخمة، وهي ذاتها شقة عابد. وجدت نفسها (متلملمة) على نفسها، تأكل أطرافها حتى كادت أن تتلاشى سوى ذلك الجزء السفلي من جسدها هو الذي بقي.. !!؟

(هل ما حدث مجرد صدفة؟ أو حدث عادي؟!).

في صباح باكر تعالت الأصوات داخل المنزل، وكان أولها صوت الخادمة ميمونة، تبعثه أصوات الصغار والكبار منطلقين من فوضى لا مثيل لها إلى خارج المنزل بعد أن نفذت رائحة كريهة إلى صدورهم، وبدأ دخان ينتقل إلى أجزاء المنزل. وفي دقائق كان الجميع في الخارج ينظرون إلى منزلهم. وفجأة أدركوا أن تثليم هي الوحيدة الغائبة..

لاحظوا أن الدخان يأتي من غرفتها، لم يجرؤ أحد على التدخل، لم

يكن فيه إلا أطفال ونساء لا يحسنّ التصرف ولم يتدربن على الطوارئ، ولم يكن أمام أروى إلا ياسر الذي اتصلت به فوراً.

وبعد لحظات انتظار طويلة، وصل شارداً، دخل المنزل وسط الدخان الهائل. مرت دقائق ثقيلة قبل أن يظهر مجدداً حاملاً جثة متفحمة بين يديه، وبعيون تمطر دمعاً وصوت مكبوت، وضعها إلى جوار النساء، اللواتي سارعن إلى تغطية جسدها المتفحم، ليعود ياسر من دون استئذان إلى غرفة تثليم وأخذ يقلب كل ما فيها.

ثم بدأ يجمع ما لم تطله النار من حاجاتها الشخصية. وهو يهم بالخروج تذكر المفكرة السوداء، عاد بسرعة إلى الغرفة، قلّب سريرها المتفحم ووجد المفكرة وقد أكلت النار أطرافها عدا مساحات في المنتصف، خطفها وغادر المكان.

لم يحاول أحد إيقافه أو منعه أو أنهم لم يكونوا جاهزين لذلك، كان يسير باتجاه واحد من دون أن يلتفت إلى أحد وينظر إلى أحد.

لم يحرص على معرفة أسباب الحادث. نجوى قالت لأروى في إحدى الأمسيات:

ـ هل تعتقدين أن سيجارة أدت إلى ذلك.

نجوى سألت ياسر عن آخر اتصال بينه وبين تثليم. وببكاء وحرقة قال:

ـ لكي أن تقولي لقد مر عمر طويل..!

كان حزنه استثنائياً، ودموعه لا تتوقف عن النزيف، وحرقته تكاد تحرق أجزاءً من جسمه، في وقت لاحق اختلى يبحث عن إجابات من المفكرة السوداء، على جواب عن الأسئلة التي تتناثر وتتداخل بشكل فوضوي

بذاكرته، فسعى إلى ترتيبها وإزالة الأجزاء المحترقة منها، وكانت صفحة واحدة لم تصلها النار كلها قرأ فيها:

«الحزن يأتي ولا يأتي، يقترب ويبتعد معاً، يتضاءل ويكبر معاً، يتداخل، ويشكل مزيجاً من ألوان محترقة قاتمة. نصنع الحزن بأنفسنا ونبحث عن محتوى له، أو سبباً مسسبباً له.

نشكو لآخرين ونتألم، ويشكو منا الآخرون ويتألمون.

وبين ذلك كله نبقى صامتين ونغتال صمتنا أو يغتالنا الآخرون.

هؤلاء الآخرون يضللوننا، يتدخلون في حياتنا، في صياغة ما يجب أن يكون،

كيف يكون، حتى في مصائرنا.

لله يا هذا الكون، لله يا هؤلاء البشر، لله يا هؤلاء الأشقياء والسعداء، الأحياء والأموات، المتكلمون والصامتون، الضاحكون والباكون.

وجودكم وجودكم، وجودي وجودي، وبين هذا وذاك يكمن الفرق بين إرادتي وإرادتكم،

ولي إرادتي ولكم إرادتكم.

إن أردتم حياتي فلا تحاسبوني على ما أملك وما فقدت،

وإن أدركتم موتي فتقدموا بمعادلاتكم وتاريخكم لتقضوا وتنقضوا عليّ.

أنا في انتظاركم يا من تأتون ولا تأتون، تحرمون وتمنحون،

تحكمون وتقضون، فأريحوني وأريحوا أنفسكم وعزوني،
أو عزائي جهلكم وإرادتكم، وأنكم من يقضي ويحكم.

تثليم

لم يدرك ما هي تلك الأحرف وأي مصير تعنيه، ولماذا كتبت هكذا وبذلك الأسلوب؟

ولكن ما يدركه أنه عاجز عن فهم كل ذلك الذي كان.

جثة تثليم بقيت يوماً ونصف اليوم، قبل بداية مراسم الغسيل والدفن. نقلت جنازتها بصحبة والدها وأطفاله الذكور، وياسر وعاملين ساعدوا على إتمام هذه المراسم. كان ياسر حريصاً على حمل الجثة من السيارة إلى القبر حاملاً مقدمة النعش.

المسافة بين السيارة والقبر لم تكن بعيدة إلا أنه يراها ممتدة إلى اللانهاية.

وكان يتحدث إلى نفسه ويتوقف فجأة مجبراً الآخرين على الوقوف. يلامس بيده الأخرى كتفه بعدما شعر بحرارة يدي تثليم تلامسه.

وتكرر الوقوف المفاجئ أكثر من مرة، والأب لا يدري ماذا يفعل؟ همه أن تنتهي هذه المراسم وبأسرع ما يمكن.

في المساء التالي وجد الجميع رائحة تنبعث من الغرفة المحترقة لم يميزوا نوعها.

ياسر بقى تلك الليلة محتضناً المفكرة السوداء ذاتها، قلّبها بصورة تشابه إلى درجة كبيرة ما كانت تثليم تفعله، ليقف أمام هذه الصفحة التي قرأها بصعوبة بسبب آثار النار على أجزاء منها:

إن كان يحق لي الاعتراف، فأنا سأعترف ولكن لنفسي.
وإن كان يحق لي البوح، فأنا سأبوح لمفكرتي، لذاتي.
أيتها الأوراق انتفضي، أيتها الأقلام ارتعشي.
بيدي زدت معاناتي، وبأيديهم كان عذابي
وبهم ولهم سأنتقم لنفسي، لقدري، لحظ كاد أن يطأني.
القادم يشرع في التهامي، الماضي يفاخر بما قضي علي،
والحاضر صراع بيني وبينكم جميعاً.
عندما تشمون رائحة جسدي تأكدوا أنها رائحة أيديكم حين وقعت على جسدي،
رائحة عيونكم حينما نظرت لي.
كلنا لنا رائحة ما، وكلنا بذات الرائحة التي ترهقكم أو ترضيكم،
سأفضحكم أمام أنفسكم، سأجعلكم تضحكون على بعضكم البعض من سدون أن تدركوا.
أنا المظلومة والظالمة، أنا الضعيفة والقوية
أنا الصوت والصمت، أنا الهدوء والطوفان، أنا البكاء والابتسام
أنا كل شيء ولا شيء أنا، وسأبقى ككلم جميعاً.. وظلكم
أما أنتم فستبقون إما مظلومين ضعفاء صامتين باكين،

أو تبقون ظالمين أقوياء صائحين مبتسمين.

أشعر برغبة عارمة تجتاح كل خلية وذرة فيّ للانتقام منكم أجمعين.
نساؤكم ورجالكم، أطفالكم وكباركم، فتياتكم وشبابكم.
لذا ستجدونني طوال عمركم. لا يهم أن تدركوا أو لا تدركوا،
المهم أنني أدركت ذلك، ونفسي وذاتي ومفكرتي وأوراقي..
وما بعدي فالطوفان لكم جميعاً..

تثلم

--

الجدار . .

ظل الصمت لغة كل من عرفها أو لامسها أو صافحها لأيام . .

وبقيت تلك الرائحة الغريبة تصل إلى كل الرؤوس جميعاً،

وتنفذ للصدور جميعاً .

تقول أروى : «إن الهاتف ظل كل ليلة يرن من دون انقطاع حتى ساعات الصباح» .

في إحدى المرات سئلت نجوى إن كان رنين الهاتف لا يزال مستمراً،

أجابتها أروى بأنه ما زال كذلك . علقت نجوى بقولها :

ـ لن يتوقفوا حتى تصل الرائحة إلى أنوف الجميع .

ردت على الفور أروى :

ـ أو لا يبقى منهم أحد؟

برودة ذلك الحوار كانت تفوق درجات التجمد، ولم يشعله سوى اتصال متكرر من شخص متردد على الطرف الآخر في الحديث . إحساس غريب جعل أروى تشجعه على التحدث . وبدأ بكلمات هامسة

غير مسموعة. شيئاً فشيئاً بدأ يملك الشجاعة على الحديث، حتى سأل بحروف متقطعة (ت.. ث.. ل.. ي.. م).

من دون تردد وجدت أروى نفسها تجيب:

ـ تثليم ليست موجودة الآن.

بدا الطرف الآخر أكثر شجاعة:

ـ متى أستطيع الحديث إليها؟

قالت أروى:

ـ قد لا تستطيع.

بسرعة فائقة جذبت نجوى سماعة الهاتف وقالت مباشرة:

ـ هي خارج المدينة وقد تعود بعد يومين أو ثلاثة.

ـ نعم، نعم. لكنها لم تخبرني بنية سفرها.

ـ هي أيضاً لم تكن تدرك أنها ستسافر بهذه السرعة. هل أستطيع معرفة المتحدث؟

ـ سميني القدر! قالها بصوت خافت.

ـ أهلاً. قالت بسخرية جافة.

ـ من أنتِ عفواً؟ هل أستطيع معرفة اسم المتحدثة معي؟

ـ أختها.

ـ أروى، أهلاً بك.

وجدت أن اللعبة تجذبها، فصمتت تقريراً لذلك.

ـ الحقيقة أن هناك خلافاً بيني وبين تثليم في آخر مكالمة بيننا.

وأضاف: «إلا أنه لم يكن بذلك السوء. لكن هل يمكن أن أطلب منك خدمة تقدميها لي ولأختك؟».

ـ جداً جداً.

ـ لدي رسالة أرغب في إرسالها لها..

ـ.....

ـ ماذا قلتِ؟ هل تساعديني في إرسال الرسالة إليها؟

ـ لك ذلك، وأعدك أنك لن تسمع صوتها حتى تقرأ هذه الرسالة!

واتفقا على أن يرسل الرسالة إلى بريد نجوى الالكتروني وتقوم بتسليمها إلى تثليم!

وما أن وصلت الرسالة لبريد نجوى، وكانت بصحبتها هذه المرة أروى حتى شعرتا برعشة داخل جسديهما في وقت واحد.

أروى من جانبها كانت متحفظة على المشاركة في هذا الموضوع. وعندما حصلتا على الرسالة تملكهما شعور متناقض بين الرغبة وعدمها في قراءة الرسالة. إلا أن نجوى استطاعت أن تكسبها في صفها مؤكدة أن هذه الرسالة قد تكشف بعض الغموض.

«أرهقني غيابك وحضورك، اختفاؤك وظهورك.

حيرني إهمالك واحتفاؤك، رغبتك وامتناعك يا سيدة نفسك، ومالكة ذاتك.

في ضعفك يكمن السر، وفي سرك يتجلى غموض العالم.

تأتين أحياناً وتغيبين أحياناً أخرى.

هكذا سأقدمك إلى نفسك وللآخرين من دون أن أعطر سلامي أو أقدم رسالتي كما يقدم الآخرون رسائلهم.

تحياتي أصبحت ذاكرة ضعيفة مترسبة، أشواقي متحجرة كرأسك، متعفنة كخطواتك، قاسية كضعفك.

أرجو أن تفهمي لماذا أكتب إليكِ، ولا تأخذك أوهامك كعادتك إلى البعيد الذي يقتلك ويغتالك ويشتتك.

لست من أولئك الرجال الذين يبكون أو يتساقطون تحت أقدامك لينظروا إلى فواصلك،

ويصلون إلى سحرك الأنثوي..!

ولست حافي القدمين كقروي جذبته المدينة بسحرها وصوتها الصاخب فنسي نعليه..

ولست عطشاناً لدرجة أن أشرب الماء من يدك وهو في درجة الغليان..

أؤكد لنفسي قبل أن أؤكد لك أنني مختلف، وفي اختلافي سر ديمومتي وتجاهلي للآخرين.

ثقي يا سيدة نفسك أنك لست الخطوة الأولى ولا الثانية ولن تكوني الأخيرة لي،

وقبلي كانت خطوات وبعدي قد تأتي خطوات وقد لا تأتي.

قرأتك كحروفي، وعرفت ألوانك متى تأتي وتختفي، كتلك اللوحة المعلقة بين السماء والأرض.

أطالعها منذ أعوام أربعة، وتتشكل بألوان الفصول الأربعة.

هذا ليس اعتذاراً، وليست كراهية أسكبها عليك، ولست نتيجة موقف، ولكنها قصة،

قصتي معك ومع الوقت، وقصتك مع نفسك.

لا أنكر أنني تعاطفت معك في وقت ما. أين كانت حقيقة ما قلتِ لي؟ ولا أنكر أنني أحببت تلك اللعبة بكل تفاصيلها، قرأتها وأعدت كتابتها وحفظتها كما يفعل الطفل أمام أنشودة لقنوها له في المدرسة،

كذلك كنت أنا، وقد نكون جميعاً.

قد تتساءلين عن الوقت الطويل معك.

ولكن متى ما أدركتِ أنك تجربة مختلفة مثرية لي أحياناً وبغيضة أحياناً، قد تفهميني وتفهمي الوقت.

مزاجيتك وعجزك سر، لن أدركه وأراهن أنك تدركيه.

رغم التناقض والاختلاف والعجز ورغم المحاولات البائسة لرسم صور مختلفة،

سأبقى من ذكور العالم، وستبقين من إناثه، ويكفيني ذلك ولعل ذلك يكفيكِ.

يا عزيزة حضرتك. .

تذكري أن صورتي أكبر وأنقى من تشويهك لها.

نيتي طيبة لأني أردتها كذلك، ولو أردت غير ذلك لكنت أحياناً أبدو طيباً لدرجة السذاجة،

وأحياناً غبياً لدرجة الحماقة، ولكني أردت أن تريني كذلك.

ولي الحق أن أخبرك، ولك الحق أن تتساءلي.

ثقي وصدقي أنني لو أردت أن أصل لأنوثتك لكان، وكم فتحتي أمامي أبواباً لذلك وأنا أغلقها.

ولو أردتها مفتوحة لكان، ولكني قد أحاول تصنع النقاء أو بعضه.

بحق تلك الأيام التي عشتيها، بكل تضاريسها ومناخها المعقد، بحق ذلك كوني أكثر حذراً.

ودعي النار خارج خطواتك ولا تحاولي أن تطئي النار وترجين السلامة.

إجعلي عقلك هو موجهك، قبل أن تتعاكس خطواتك ولا تعرفي أي الاتجاهات،

تسيرين فينكشف كل شيء ويكون ما تخشين.

لأجل هذه الكلمات، ولأجلي ولأجلك أيضاً أعلن الرحيل،

وسأظل أحتفظ لك بذاكرة مغلقة داخل صندوق أسود يصعب فتحه إلا لك.

لن أختم رسالتي كما يفعل الآخرون، وسأبقى من رجال العالم، وستبقين من نسائه،

وهذا يكفيني ولعل ذلك يكفيكِ.

يا أنت، للمرة الخمسين أقولها لك، وأعيد تلاوتها عليك، كفاكِ خطيئة،

وكفاكِ تحميلاً لخطيئتك الأولى خطايا.

يا أنت، لماذا تغتالين نفسك وتتشبثين بالقدر ثم تلومينه؟ وتلوميني؟

اعتدت أن أسمعك، أتفاعل معك، أبحث عنك، أقرأ صوتك.

ولمرة واحدة وأخيرة تأملي حروفي، اجعليها تعويذة حياتك متى أرهقك العبث.

أعترف أنني فشلت في صياغتك من جديد، رغم كل البوح الذي قدمتي لي.

وأعترف أيضاً أنني كنت الخاسر والرابح في لعبتنا تلك.

ما أود قوله وتأكيده أن العالم، كل العالم، كل شخص فيه يحمل جروحاً وأحزاناً وصرخات ولست أنت فقط.

الفرق بيني وبينك أننا لا نجتمع ولا نتفق في الواقعية ونظرتنا للأشياء.

لذا فالفرق يكمن في القدرة على العلاج وكبت الأحزان وكَمِّ الصرخات،

وتغيسير الملامح والانتقال إلى خط جديد مختلف عن السابق،

هذا هو الأهم.

أما أن نظل على ذات الخط حتى ولو كبتنا وكممنا وغيرنا فلن يحدث جديد.

ما أجمل القدرة على إيقاف الزمن وإعادة حساباته،
لا أن نكسر عقارب الزمن أو نجعلها تركض في مساحات وفضاءات واسعة داخل حياتنا، لا يوجد أكثر جمالاً وتوازناً من أن نحركها نحن، وفق إرادتنا ونحدد مساحة تحركاتها، لا أن تتحكم بنا،
لأننا عند ذلك سنكون ضعفاء وسيلتهمنا الوقت،
ونمنح الآخرين الحق في إلغاء وجودنا.

تأكدي أننا أرقام ضئيلة في تعداد البشر وقد تكون منسية.
وانطواؤنا وفقداننا لذواتنا لا يعني للآخرين شيئاً.
وبالتالي يبرز السؤال الأهم: كيف يمكن أن نكون موجودين نشعر الآخرين بهذا الوجود ونعلن عنه؟
ذلك يتوقف لا ريب على قدرتنا على التعامل مع الجروح،
مع المصائب، مع الأحزان، ولغة البكاء التي نستخدمها.
والأهم أن نتجاهل ـ أحياناً كل شيء مع نهايته أو لبعض الوقت..

ثقي أن ما حدث ويحدث قد يتكرر معك،
ولكن بلغة أكثر عنفاً، بلغة لا رحمة فيها،
بلغة لا تعرف سوى النهاية، وما بعدها هم عقابك أو عقاب لك،

وتماديكِ يسقي هذا العقاب حتى ينمو..

أؤكد لك أن هذه «العريضة» ما هي إلا وثيقة مقدمة لك،
وصورة من مرحلة مضت وقد تكون مرحلة قادمة مع اختلاف الأسماء والصورة والألوان.

لست نذير شؤم،
ولكني أقرأ القادم من حقيقة الحاضر وواقع الماضي، أنسجها خيوطاً ترسم صورة المستقبل.
مهما كان هذا القادم طوفاناً أو عذابات أو نوراً..

لا أرغب في إعادة تلاوتي عليك ولا في تكرار حروفي ورسم كلماتي بذات الصور.
كما لا أريد أن تكون ملامحك هي ملامحك، ولا صوتك هو صوتك..
لأنني ببساطة أصاب بالملل من أبسط الأشياء..!!
أخيراً، لا تنتظري وداعاً يطلب الغفران،
أو لقاءً يرجو العفو، فذلك كله لا يعنيني وقد لا يعنيكِ.

في يوم لا لون له في شهر لا طعم له، في سنة كلها رائحة.
التوقيع: اسم يشبه القدر

عندما انتهت الرسالة، لم يجرؤوا على الحديث، بقوا صامتين وأطرافهم باردة وعيونهم جامدة.

فجأة شعروا بالاختناق، ومن دون حديث، تفرقن، غادرت نجوى إلى سيارتها، في الطريق سمعتا شيئاً يشبه الدوي الهائل من داخل غرفة تثليم، هربت أروى إلى فراغ غرفتها لم تستطع النوم.

عادت بتثاقل واتجهت مباشرة إلى غرفة تثليم، لم تجدها، لم تجد الغرفة مكانها، أكملت السير إلى آخر الممر الذي تقع فيه الغرفة.

وجدت أن الغرفة أصبحت بلا باب، لقد أصبحت جزءاً من غرفة كبيرة لزوجة أبيها الجديدة..

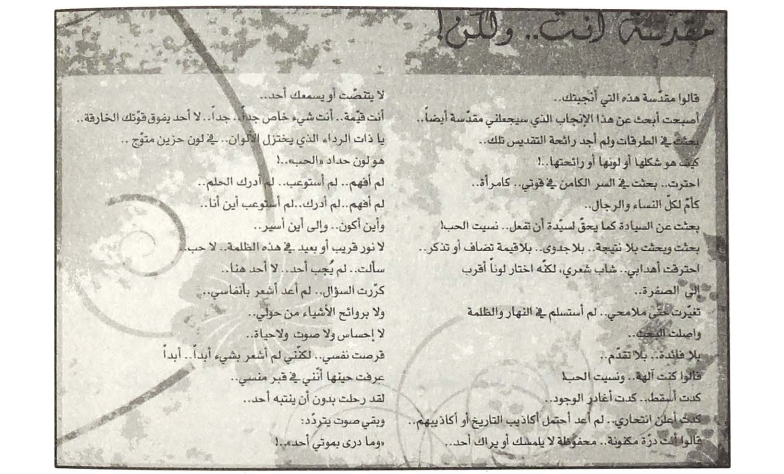
مقدسة أنت.. ولكن!
قالوا مقدّسة هذه التي أنجبتك..
أصبحت أبحث عن هذا الإنجاب الذي سيجعلني مقدّسة أيضاً..
بحثت في الطرقات ولم أجد رائحة التقديس تلك..
كيف.. هو شكلها أو لونها أو رائحتها..!
احترت.. بحثت في السر الكامن في قوتي.. كامرأة..
كأمّ لكلّ النساء والرجال..
بحثت عن السيادة كما يحقّ لسيّدة أن تفعل.. نسيت الحب!
بحثت وبحثت بلا نتيجة.. بلا جدوى.. بلا قيمة تضاف أو تذكر..
احترقت أهدابي.. شاب شعري، لكنّه اختار لوناً أقرب
إلى الصفرة..
تغيّرت ملامحي.. لم أستسلم في النهار والظلمة
واصلت البحث..
بلا فائدة.. بلا تقدّم..
قالوا كنت آلهة.. ونسيت الحب!
كدت أسقط.. كدت أغادر الوجود..
كنت أعلن انتحاري.. لم أعد أحتمل أكاذيب التاريخ أو أكاذيبهم..
قالوا أنت درّة مكنونة.. محفوظة لا يلمسك أو يراك أحد..
لا ينتصّت أو يسمعك أحد..
أنت قيّمة.. أنت شيء خاص جداً.. جداً.. لا أحد يفوق قوّتك الخارقة..
يا ذات الرداء الذي يختزل الألوان.. في لون حزين متوّج ..
هو لون حداد «الحب»..!
لم أفهم.. لم أستوعب.. لم أدرك الحلم..
لم أفهم..لم أدرك..لم أستوعب أين أنا..
وأين أكون.. وإلى أين أسير..
لا نور قريب أو بعيد في هذه الظلمة.. لا حب..
سألت.. لم يُجب أحد.. لا أحد هنا..
كرّرت السؤال.. لم أعد أشعر بأنفاسي..
ولا بروائح الأشياء من حولي..
لا إحساس ولا صوت ولا حياة..
قرصت نفسي.. لكنّني لم أشعر بشيء أبداً.. أبداً
عرفت حينها أنّني في قبر منسي..
لقد رحلت بدون أن ينتبه أحد..
وبقي صوت يتردّد:
«وما درى بموتي أحد»..!

البداية . . .

المحتويات

الإهداء ٦

شك الذكريات..! ١٣

نهاية أسبوع أخرى كئيبة... ..... ١٥

الهروب أم الخوف... ..... ٢٤

حياة كادت أن تبدأ... ..... ٣١

النقيض... ..... ٣٩

ليتك تغير عادتك...؟ ٤٥

هيكل، مسمار ووجوه قاسية.. ..... ٥٥

لست أدري..؟! ٦٠

لعبة..! ٦٨

مغامرة أو مقامرة.. ..... ٧٠
رحلت.. ..... ٧٩
أسئلة بلا استفهام.. ..... ٩٧
إنذار.. ومفارقات.. ..... ٩٩
مقاومة الرجس.. ..... ١١٣
خسارة وتفاعلات... ..... ١١٨
ما بعد الخطوط الحمرس... ..... ١٢٧
الجدار.. ..... ١٣٦

اعتادت أن تسمع هذا الصوت الأجش بخشونته المفزعة في هذا التوقيت من كل يوم، يصاحبه طرقات قوية وضربات لا تتوقف على باب غرفتها، توحي بأن الباب لن يبقَ في مكانه لفترة طويلة.

في المرات التي تتكرر فيها الطرقات القوية على باب غرفتها، وبعد فترة قصيرة مصحوبة بالضربات الأولى يأتي صوتها مخنوقاً:

- صحوت، ولا رغبة لي في الأكل.

- لا يهم، أخرجي قبل أن يتعفن جسدك. ماذا تفعلين خلف هذا الباب المغلق..؟!